آيات قرآنية

وسنن ربانية

عبد العزيز كحيل

دار الخلدونية

آيات قرآنية وسنن ربانية

عبد العزيز كحيل

دار الخلدونية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحياة مع القرآن الكريم متعة كبرى للقلب والعقل، تنمّي الأفكار الحية المنعشة الفاعلة وتصقل المشاعر وتهذّب العواطف وتجعل الأحاسيس رقيقة مؤثرة، على أن يكون النظر في الآيات الكريمة مقاصديا يقوده التدبّر العميق وطول المصاحبة الواعية، ولئن كان التفسير بمعناه التقليدي شيئا مطلوبا وضروريا في كل زمان فقد اهتدى الباحثون في الأحقاب المتأخرة إلى العناية بالتفسير الموضوعي من جهة والبحث في السنن التي حواها كتاب الله تعالى من جهة اخرى، وهذه نقلة بعيدة تمكّن المسلمين من استخراج مزيد من كنوز الكتاب الخالد وعلى رأسها السنن النفسية والاجتماعية اي القوانين الثابتة المطّردة العامة الماضية في الأفراد والمجتمعات تحكم حركة التقدم والتغيير والإصلاح والابتلاء والتدافع المجتمعي والمداولة و الحضارية والتمكين في الأرض، وهي سنن مبثوثة في القرآن الكريم لا يستغني عن دراستها عالم ولا داعية ولا مصلح ولا طالب علم من أجل والانطلاق منها والاحتكام إليها في بناء الإنسان والأسرة والمجتمع والأمة والعلاقات الدولية والحياة الأخروية، و معرفة السنن إذًا والسير على هداها فيه أخذ بأسباب النصر والتمكين والفلاح وتحقيق معنى الاستخلاف في الأرض وعمارتها، وقبل ذلك لا نستطيع أن نفهم التاريخ ونحلل الأحداث إلا بفهم السنن الإلهية، أما

فهم الواقع وحسن التعامل معه فهو بيت القصيد خاصة بالنسبة للدعوة والفتوى.

إن دراسة السنن يتجاوز الوقوف عند الألفاظ والجمل لينتهي إلى بناء متين يفتح مغاليق النفوس والأمم وينير طريق الاصلاح.

وهذا الكتيّب محاولة لقراءة موضوعية تحليلية لبعض الآيات الكريمة ليس لاستكشاف سنن إلهية ولا تناولها بالدراسة ولكن لفتح الباب في هذا الموضوع ووضع خطوات أولى لدراسة وافية متشعبة ومعمقة عسى ان يلتفت إلى ذلك الكُتاب والباحثون وطلبة العلم.

وبالله التوفيق.

عبد العزيز كحيل

ماي 2017

المقالة الأولى

الأبعاد الواقعية للنماذج القرآنية

من صور التعبّد الفعلي بالقرآن الكريم تنزيل مفاهيمه على الحياة العملية وتتبّع أبعاده في الواقع بكيفية إيجابية تجمع بين التماثل النموذجي والمعالجة الذكية المفعمة بالفقه العميق للمفاهيم والمصطلحات في حدّيها القرآني والواقعي، فليس من التعبّد بكتاب الله الوقوف على قصصه وأشخاصه ووقائعه وتعبيراته وكأنها تجسّد تاريخا معيّنا فحسب، فهذه الرؤية الماضوية لا تتناسب مع خلود القرآن وكونه دستورا لكلّ الأزمنة وإنما يجب استحضار ذلك القَصص وأولئك الأشخاص وتلك الوقائع والتعبيرات باعتبارها نماذج وحقائق تستوعب الزمان والمكان، قد يحجبها عن النظرة السطحية تغيّر الأسماء و الأشكال، بيد أن جوهرها باق على حاله لا يخفى على الناقد البصير... وإدراك هذه "المعاصرة" القرآنية لا يحتاج إلى التكلّف والتأويل البعيد و لا الوقوف عند ظواهرها ورسومها وإنما يحتاج إلى التدبّر المنهجي، ولعلّ هذا هو المعنى الذي يشير إليه قول الله تعالى ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ سورة العنكبوت 43، فكلّ الناس يقرؤون المثال أو يرونه لكنّ أصحاب العلم هم وحدهم الذين يتعاملون معه التعامل الإيجابي المثمر.

ولبيان ما سبق نعمد إلى انتقاء بعض الأمثلة على مستوى الأشخاص والمفاهيم والرموز الواردة في كتاب الله تعالى.

على مستوى الأشخاص

1-ذو القرنين: سجّل القرآن لهذا الرجل ثلاث رحلات: إلى المغرب والمشرق والوسط، يجمع بينها مقصد نبيل هو دعم الخير ومواجهة الشر:

- ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ سورة **الكهف** 87-88

- ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ سورة **الكهف** 94-95

فذو القرنين - وهو من غير شكّ شخص عاش في زمن معيّن ومكان معيّن ومات في أجل معيّن - رمز لصاحب القوّة والتمكين الذي سخر قوته وتمكينه في الإصلاح وخدمة الدين والبشر، إنّه- خلافا لأكثر الحكّام الأقوياء - لم يغترّ بأسباب القدرة الكثيرة التي توفرت له من جيوش وعلماء وخبرة ذاتية، فلم تمل به إلى الطغيان، بل بقي مصلحا وعلى صلة دائمة بالعبودية لله تعالى:

- ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ سورة **الكهف** 84

- ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ سورة الكهف 98

هذا الفاتح المؤمن قدوة لأصحاب المنهج الصالح الذين يستخدمون قدرتهم السياسية والعسكرية والاقتصادية والإعلامية في مقاومة الفساد ونصرة الضعفاء، وهم غير طامعين في أموال الشعوب الضعيفة: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾، هكذا رفض عرضهم بإمداده بالأموال ونقلهم بدلا عن ذلك من العطالة إلى الايجابية والعمل القوي المنتج، فهو قائد يحسن التسيير والقيادة وليس واحدا من المرتزقة الذين يسيل لعابهم للمكافئات والهدايا.

وعلى البشرية - والأمة الإسلامية ابتداء - أن توجد بالتربية والتوجيه والاصطفاء وحسن الإختيار والتوظيف مثل هذا النموذج الصالح لنشر العدل ومساعدة المتخلّفين وردّ العدوان وتعمير البلاد على المنهج الأخلاقي الرفيع.

2-**فرعون**: هذا الذي تكرّر ذكره في القرآن هل هو فقط ذلك الملك الجبّار الذي كانت له مع نبيّ الله موسى مجادلات ومنازلات؟ هل تكرّر ذكره في القرآن لأنّه شخص كان له دور معيّن في قصة معيّنة؟ هذه السطحية تتنافى مع منهجية الوحي، وفرعون إذاً- وهو بالفعل إنسان له دور في أحداث تاريخية - يرمز إلى الاستبداد السياسي، ومنطقه هو منطق المستبدين جميعا:

- ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ **(موسى الداعية المصلح)** دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ۝٢٦﴾ سورة غافر 26

- ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ سورة غافر 29

- ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ سورة الشعراء 53-55...

فاستحضار النموذج الفرعوني بغطرسته ومنطقه أمر ضروري لفهم الاستبداد وحسن التعامل معه بالكيفية التي تحجّم فساده وتجعل المصلحين والأحرار يقاومونه ويهزمونه في النهاية.

3-قارون: تبيّن سورة القصص بوضوح كيف أنّ الرجل كان فتنة لمجتمعه بسبب تصرّفه الظالم في المال: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى﴾ الآية 76، هذا البغي بالثروة قابله عقلاء المجتمع بالنصح: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ الآية 77، لقد طالبوه بالعدالة الاجتماعية وإدالة المال بين الأيدي لأن الاستئثار به فساد أي ظلم اجتماعي، لكنّه تمسّك بالأنانية والشحّ والاستكبار: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ الآية78، ولم يكتف بالقول بل فتنهم بالفعل أيضا: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (وهم الجماهير) يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ الآية 79

وفتنة المال مثل فتنة السلطة لا يخلو منها زمان تُفسد المجتمع ما لم يواجهها أرباب الدعوة والإصلاح بالحزم المطلوب.

على مستوى المفاهيم:

التطفيف الاجتماعي: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ سورة المطففون1-3، هل من المنطق قصر هذا التطفيف على ما يفعله بعض التجار الجشعين في الكيل والميزان؟ إنّ نبي الله شعيبا بعث لمحاربة التطفيف فهل يعقل أن رسالته اقتصرت على تقويم هذا السلوك التجاري وحده؟ ألم يقل لقومه: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ سورة الأعراف 85...إن أبشع أنواع التطفيف اشتراط مثاليات حالمة في الغير والسماح بتفريط شديد في الذات، والله تعالى عندما قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ سورة الرحمن 9 إنما يريد أن نتجنّب التطفيف مهما كانت صوره وأن نعدل في الحكم على الذات وعلى الغير والوقائع والأفعال، فلا نميل مع النفس ومن نحب وما نحب على حساب الغير وحقوقه، وانظر مثلا إلى من يبحث عن زوجة جميلة صالحة رفيعة المستوى لابنه الذي يعرف انحرافه وسلبيته ووزنه الخفيف في ميدان الدين والخلق، هذا هو التطفيف بعينه.

شياطين الإنس: في تقديم الله تعالى ذكر شياطين الإنس على شياطين الجنّ في آية الأنعام إيحاء بخطورتهم: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ الآية 112، وحصر كثير من المفسرين الأمر في المجال الأخلاقي وسعي بعض الناس في إفساد علاقات المحبة والتآلف، لكنّنا نرى في العصر الحديث أنّ تجار الأسلحة طبقة جديدة من شياطين الإنس تسعى حثيثا في زرع الفتائل وإيقاد

النيران وتأجيجها والحيلولة دون إخمادها حفاظا على مصالحهم المادية، فهل نتنبه إلى خطورة هؤلاء الشياطين ونتتبّع في القرآن صفاتهم وخصائصهم ليكون لنا وعي بإفسادهم وخطط مدروسة لإبطال كيدهم؟ ومثلهم أصحاب الفضائيات الماجنة والصحف الخليعة وكل ﴿ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ سورة النور 19

على مستوى الرموز:

المحراب: هو المكان البعيد عن الضوضاء الذي يتّخذ للعكوف على عبادة الله سواءً كان مسجدا أو غرفة أو نحو ذلك، فهو يرمز إلى العكوف الجدّي الذي يؤتي ثماره: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ سورة آل عمران37، فعكوف مريم الجدّي جلب لها الرزق بطريقة خارقة، وكذلك زكريا عليه السلام: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ الآية 39، هنا اقترن التبشير بالولد "المعجزة" بعكوف زكريا الجادّ الطويل، وإذاً فالعكوف المستحضر للقوى العقلية والقلبية والجارحية يأتي بالمعجزات بإذن الله، والأمر لا يختلف إذا نقلناه من محراب الصلاة إلى محراب البحث العلمي، فالصلاة ارتباط القلب بالملإ الأعلى وحقائقه وأسراره، والبحث العلمي ارتباط العقل بكون الله الفسيح وحقائقه وأسراره، والمحراب مقدّس هنا هناك لأنه تجاوب مع الآيات المتلوّة والآيات المجلوّة، وعندما يفهم المسلم هذا الرّمز فإنه يسعى إلى الاعتكاف في المحرابين معا في تناغم يتناسب مع توحيد الله وأداء واجبات الخلافة.

المغضوب عليهم والضالون: تقول التفاسير القديمة هم اليهود والنصارى، ولا اعتراض لنا على ذلك لكن نسأل: لماذا اليهود والنصارى؟ هل لذواتهم أم لخصائص فيهم؟ هذا هو بيت القصيد.

إنّ عبارة "المغضوب عليهم" ترمز إلى كلّ من عرف الحقّ ورفضه وأعرض عنه، وترمز كلمة "الضّالون" إلى كل من طلب الحقّ لكنّه لم يسلك طريقه فضلّ، والعبارتان تنسحبان إذاً على كل من تتوفّر فيهم هذه الصفات قديما وإلى قيام الساعة، والاستقامة التي ينشدها المسلم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ سورة الفاتحة7 لا تنال بمجرد التبرؤ من اليهود والنصارى وإنما بالمراقبة الدائمة والحذر من الاتّصاف بأوصافهم "الغضب الإلهي والضلال"، وكم في المسلمين من يلعن اليهود وهو متنكّب لطريق الحق بعد أن عرفه مثل ما حدث لبني إسرائيل تماما، وفيهم من يدين المسيحيين، واجتهاده لا يقوده إلاّ إلى نوع من أنواع الضلال الذي وقعوا فيه، فهم عبدوا المسيح ولعلّ هذا المسلم خرم التوحيد وابتدع في العبادة وزيّف الأخلاق فاستحقّ مثلهم وصف بالضلال.

عبرة:

هذه طريقة مقترحة للتعامل مع كتاب الله تساعد على إبقائه حيّا غضّا طريّا كما تساعد على فهم المشكلات المطروحة على مستوى الأشخاص والمفاهيم والرموز، والفهم هو الخطوة الأولى الحاسمة في طريق الحلّ والتوفيق والبناء.

ومن أهمّ ما ينبغي التوقف عنده بشيء من التفصيل في هذا المقام: فرعون و قارون، لا أقول لخطرة الرجلين ولكن لخطورة ما يمثلانه من فساد وانحراف في كل الأزمنة والبيئات.

المقالة الثانية

الفرعونية

هي نسبة إلى فرعون ذلك الحاكم المتجبّر الظالم الذي ورد ذكره في أكثر من موضع من كتاب الله تعالى ضمن أحداث قصة موسى عليه السلام.

صفاتها ونهايتها:

فرعون لقب يحمله حكّام مصر القدامى أو هو اسم علم للملك الوارد ذكره في القرآن الكريم، وفي الحالتين هو نموذج الطاغيّة المتجبّر المفسد في الأرض الّذي تلاحقه اللعنات مع مطلع الشمس ومغيب النجوم لطغيانه وتجبّره وإفساده، وهو وإن كان شخصاً عاش في زمان معيّن ومكان معيّن إلاّ أنّ الّذي يعنينا فيه ليست ذاته ولكن خصائصه الّتي يتشكّل منها كلّ طاغيّة عبر العصور ولهذا - والله أعلم - ذكر في القرآن الكريم أربعاً وسبعين مرّةً هي تسليط للأضواء الكاشفة على صفاته القبيحة:

1. **الاستعلاء:** هو إنسان خرج من صلب امرأة لكنه لا يقبل نفسيا بهذه الوضعية، فيحتقر الناس ويتكبّر عليهم ويعتبر نفسه من طينة غير طينتهم، بل يبلغ به الغرور إعلان الألوهية، وهو العبد الضعيف الحقير الفاني. أما فرعون المذكور في القرآن الكريم فقد قال الله تعالى عنه:

-﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ سورة القصص4

- ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ سورة القصص 39

- ﴿ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ سورة يونس 83

وأما الفراعنة في دنيا الناس فهم يقتبسون منه هذه الصفات الذميمة، فترى الواحد منهم إذا تربّع -بطريقة غير شرعية في الغالب- على كرسي السلطة تكبّر وتجبّر واعتبر التواضع مذمّة ونسي -وإن كان مسلما- أن العلو لله تعالى وحده: ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾ ﴾ سورة الأعلى 1، فهو صاحب العلوّ بكل معانيه العظيمة،كما قال الإمام ابن القيم في نونيته الشهيرة: علوّ قدر وعلوّ قهر مع علوّ الشان.

ينسى الطاغية هذه الحقيقة وينسى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد دانت له الأرض وأذعن لدعوته الإنس والجن ونصره الله تعالى بالرعب فلم يخرجه ذلك عن حدود التواضع بل كلما ازداد تمكينا في الأرض ازداد تواضعا لله تعالى وللعباد.

2.الأحادية: تجد الطاغية المستعلي يطوف حول ذاته يسبّح بحمدها ويلهج بذكرها ولا يقبل من الناس إلا أن يطوفوا به ويسبّحوا بحمده ويلهجوا بذكره ولو نفاقا وزورا، فهو لا يرى الآخر بل يرفضه ويردّ أفكاره وآراءه لأنه يدّعي احتكار الحقيقة، فرأيه صواب لا يحتمل الخطأ ورأي غيره خطأ لا يحتمل الصواب، هكذا هم الفراعنة دوما، لذلك يحيطون أنفسهم بمن يسوّغون أخطاءهم وخطاياهم ويزيّنون

لهم سوء أعمالهم وينفخون في غرورهم فيزيد تحرّشهم بمن يعارضهم ولو بكلمة موزونة العبارات أو نصيحة صادقة بعيدة عن التملّق:

﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾ سورة غافر29، فطريق الرشد واحد لا ثاني له، هو ما اختاره الزعيم الملهم المبرّأ من الخطإ!!!

بسبب هذه الأحادية المفرطة رفض فرعون مناقشة موسى عليه السلام وتحدّاه وكال له الاتهامات المتسرّعة:

- ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢﴾ سورة الزخرف 52

- ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ **(أي موسى ومن آمن معه)** ﴿لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ٥٦﴾ سورة الشعراء 54-56، سبحان الله كأنك تقرأ بيانا حكوميا يصف المعارضين المسالمين في عالم اليوم!!!

- ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾ سورة طه 71.

3.**الإرهاب الفكري**: من قواعد الحكم عند الطاغية إلغاء عقول الناس واختيارهم الحرّ والتحكم في أفكارهم، فإذا قال الاشتراكية هي وحدها الحلّ يجب أن يعتقد الجميع أن أي حال آخر مؤامرة وخيانة ورجعية، وإذا رأى أن النظام الليبرالي هو طوق النجاة فلا يجوز لأحد أن يماري في هذا ولو كانت معه ألف حجة علمية، بل لا يحقّ لأحد أن يختار عقيدة دينية إلا التي يؤمن بها الطاغية، ألم ينكر فرعون على سحرته عندما آمنوا بموسى عليه السلام بقوله: "آمنتم له

قبل أن آذن لكم؟' سورة طه 71، حتى الإيمان الذي محله القلب يخضع لإذن فرعوني مسبق!!!

وفي جوّ الإرهاب الفكري تموت المواهب ويأفل نجم الحرية ويسود النفاق ويستنسر البغاث ويؤتمن الخائن ويخوّن الأمين، وكم عشنا هذا في عالمنا العربي الإسلامي ومازلنا نعيشه، رغم أن الله تعالى لم يفرض دينه الحقّ على أحد بل قال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ سورة الكهف29، وقال لرسوله ﷺ: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ سورة يونس99، لكن شتان بين منهج الله تعالى الذي يحمل علامات الصدق في قسماته وبين مناهج أرضية وضعية بشرية تسيّرها نزوات الغرور والعجرفة.

4.**الاغترار بالملك:** هذا بالضبط ما عليه طواغيت الغرب ومن يقلّدونهم، اغتروا بالازدهار الاقتصادي والترسانة العسكرية وترامي أطراف البلاد والأموال المكدّسة في البنوك أو المستثمرة في أنواع الملاهي والمفاسد، فكان حالهم كما صوّره القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ سورة الفجر 11- 12، وقد أعرب سلفهم سيء الذكر عن كمائن أنفسهم: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ سورة الزخرف51.

فالطاغية مقطوع الصلة بالله تعالى، وهذا ما جرّأه على رفع عقيرته بالقول الآثم المنكر: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ سورة النازعات24، ولئن صرّح بها فرعون مصر فإن غيره من الفراعنة يقولونها بلسان الحال

ويتصرّفون في شعوبهم وأموالها ومصائرها تصرّف من لا يسأل عمّا يفعل وكأنهم يتمتّعون بخصائص الألوهية، بل أكثرهم لا يقبل أن يناقش أحد آراءه لأنها دائما سديدة بالضرورة، ولا أن يعترض معترض على قراراته لأنه ليس في الإمكان أبدع منها...

ولا بد من الإشارة إلى أن الطاغية يجد دائما حاشية من العلماء والمثقفين تبارك طغيانه وتضفي عليه الشرعية وتحاصر دعاة الحرية والإصلاح بالنصوص الدينية والذرائع المختلفة، فلها نفس حكمه، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝٨﴾ سورة القصص8.

وسائل الفرعونية: هي وسائل لا يطرأ تغيير على جوهرها عبر العصور وإنما تتجدّد الأساليب والأدوات الأكثر فتكا، ولا تخرج هذه الوسائل عن ثلاث:

تشتيت قوة الأمة: ما من فرعون إلا ويعمل بالقاعدة العتيقة "فرّق تسد"، فيصنع في المجتمع طبقات متناحرة لا يكفّ عن تأجيج نار العداوة بينها ليضعفها جميعا ويبقى هو وحده القوي، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ سورة القصص4.

الظلم: ﴿...يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ...﴾ سورة القصص 4.

أما فراعنة اليوم فيظلمون الجميع، لا يفلت من ظلمهم صاحب صوت حرّ مهما كان مسالما إلا فئة قليلة ممن أخلصوا له الطاعة العمياء والعبودية الكاملة.

الإرهـــاب: ﴿..... يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ.... ﴾ ســـــورة القصص4، وكم يعاني الأحرار الأبرياء من سجون الفراعنة ودهاليز الاستنطاق والتعذيب حتى يقضي الزبانية على معاني الكرامة والعزة والمروءة والشموخ، وللمرء أن ينظر من حوله ويتسـاءل: هـل تغيّر شيء من هذه الوسائل منذ فرعون مصر إلى اليوم؟

نهاية الفرعونية: لم يمنعه ادّعاؤه الألوهية من أن تناله هزيمة نكراء على يد أحد أبناء المستضعفين، قد كان الطاغية يسـخر منـه ويتوعّـده، انتصر الداعية المسالم الصابر المستمسك برسالة التغيي، وطويت صفحة الطاغية في خضمّ أمواج غاضبة عاتية ابتلعت استغاثته الذليلة الكاذبة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ...﴾ سورة يونس90- 92.

وقـد بـدأت نهايتـه حـين تمـرّد عليـه السـحرة- أي السـند الفكـري والإعلامي- ولم يعبؤوا بتهديده لهم أمام الجماهير وقالوا له بكل قوة: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾سورة طه 72.

هذا التحدي الواضح أعمل معول الهـدم في صـرح الفرعونيـة لينهـار بعدها على يد موسى عليه السلام الذي يمثّل الثائر على الطغيان والظلم.

تلك هي الفرعونية دائما، وتلك هي نهايتها دائما.

وتبقى مشكلة عويصة هي استكانة الشعب ورضاه بالذل والهوان: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ سورة الزخرف 54

الفرعونية والقابلية للاستخفاف.

لم يكتف القرآن الكريم بفضح الفرعونيّة والإنكار الشديد عليها وإنما حمل المسؤوليّة كذلك للجماهير الرّاضخة المستسلمة، فقال عن فرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ سورة الزخرف 54.

فالظاهرة الفرعونيّة تتشكّل من الطاغيّة الغشوم من جهة والأمّة المتصفة بالسلبيّة من جهة ثانيّة، ولم تأت هذه السلبيّة وهذا الخنوع إلاّ من حالة نفسيّة وفكريّة هي "القابليّة للاستخفاف" تماماً مثل الظاهرة الاستعماريّة الّتي حلّلها الأستاذ مالك بن نبي – رحمه الله- تحليلاً علميّاً تاريخيّاً دقيقاً ليخلص إلى استنباط سببها المتمثّل في "القابليّة للاستعمار" أي وجود الأمّة في حالة من الضعف الثقافي والانهيار النفسي والعجز عن الأداء تقضي على مناعتها الذّاتية فتكون فريسةً سهلةً للاحتلال الأجنبيّ... وهذا ينطبق تماماً على الفرعونيّة انطباقه على الاستعمار.

وقد تناول الأستاذ سيد قطب -رحمه الله- "القابليّة للاستخفاف" ببيان رفيع يقول فيه معلّقاً على إعلان فرعون ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾: ((قالها الطاغيّة مخدوعاً بغفلة جماهيره وإذعانها وانقيادها، فما يخدع الطغاة شيء ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلّتها وطاعتها وانقيادها، وما الطاغيّة إلاّ فرد لا يملك في الحقيقة قوّةً ولا سلطاناً، إنّما هي الجماهير الغافلة

الذلول، تمطي له ظهرها فيركب! وتمدّ له أعناقها فيجرّ! وتحني له رؤوسها فيستعلي! وتتنازل له عن حقّها في العزّة والكرامة فيطغى.

والجماهير تفعل هذا مخدوعةً من جهة وخائفةً من جهة أخرى، وهذا الخوف لا ينبعث إلاّ من الوهم، فالطاغية -وهو فرد- لا يمكن أن يكون أقوى من الألوف والملايين، لو أنّها شعرت بإنسانيتها وكرامتها وعزّتها وحرّيّته، وكلّ فرد فيها هو كفء للطاغيّة من ناحيّة القوّة ولكن الطاغيّة يخدعها فيوهمها أنه يملك لها شيئاً! وما يمكن أن يطغى فرد في أمّة كريمة أبداً، وما يمكن أن يطغى فرد في أمّة رشيدة أبداً، وما يمكن أن يطغى فرد في أمّة تعرف ربّها وتؤمن به وتأبى ن تتعبّد لواحد من خلقه لا يملك ضرّاً ولا رشداً.

فأمّا فرعون فوجد في قومه من الغفلة ومن الذلّة ومن خواء القلب من الإيمان ما جرؤ به على قول هذه الكلمة الكافرة الفاجرة: "أنا ربّكم الأعلى".. وما كان ليقولها أبداً لو وجد أمّةً واعيّةً كريمةً مؤمنةً، تعرف أنّه عبد ضعيف لا يقدر على شيء وإن يسلبه الذباب شيئاً لا يستنقذ من الذّباب شيئاً)).

وليست المسألة متعلّقةً بفترة تاريخيّة معيّنة ولا بحيّز من الأرض ولا بقوم دون آخرين، إنّما هي مجموعة من الخصائص تتجمّع بالتراكم في شعب أو شعوب تنهار نفسيّاً فتفقد الثقة بذاتها ولا تقوى على تفعيل طاقاتها البشريّة والماديّة فتخلد إلى إسلام أمرها إلى كل متسلّط يفعل بها ما يشاء، سواءً كان احتلالاً خارجيّاً أو حاكماً جائراً، فهي كالجسم

الفاقد للمناعة تعبث به العلل وتنهكه الأمراض فيحاول صدّها بأدوية لا فاعليّة لها فينتهي به الأمر إلى الاستسلام، وربّما لعن المرض والعلاج الفاشل وغفل عن حالته العامّة وعدم أداء مختلف الأجهزة والغدد والأعضاء لوظائفها، فالموت هنا مسألة وقت لا محالة.

هل ترى الأمة المحصنة عقديا ونفسيا ترضى بالهون والدون، تدير الخد الأيسر لمن لطم خدها الأيمن، تبارك جلاديها وتستمتع بالظلم الواقع بها؟ أمّا حين يأتي عليها حين من الدهر وهي مهتزّة الأركان ضعيفة الأداء عديمة الفاعلية كثيرة الأسقام الدينية والاجتماعية فإنها تصبح مطية سهلة لكل جبّار ظلوم، تجد له الأعذار وتلعن نفسها، وبمرور الزمن تستمرأ الوضع وتتخلى طواعية عن دفاعاتها النفسية وترفض أي محاولة للانعتاق خوفا من"الفتنة"، متناسية أنها في أتون الفتنة في أسوأ أشكالها وأكثرها بغضا عند الله تعالى وعند البشر الأسوياء.

إذا كانت الفرعونية مصيبة فإن القابلية للاستخفاف تساويها بل قد تتجاوزها لأنها تمثّل التخلي عن خصائص الإنسان المكرّم.

لقد أنحى القرآن الكريم باللّائمة على أهل الكتاب لأنّهم تنازلوا لرجال الدين وقبلوا أن يحلّوا لهم الحرام ويحرّموا عنهم الحلال، واعتبر ذلك عبودية لهم من دون الله تعالى - كما ورد في تفسير رسول الله ﷺ للآية الكريمة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سورة التوبة31، فكيف إذا تنازلوا عن حريّتهم وفرّطوا في كرامتهم وحنوا ظهورهم للطاغية ومدّوا له رقابهم؟

ومازالت التطبيقات الإسلامية لرفض الاستخفاف ماثلة أمامنا، فهذا أبو بكر رضي الله عنه يحرص في أول خطاب له بعد تنصيبه على رأس الدولة على إبراز معاني الوجود الإيجابي للأمّة لتحسن أن تقول لا للحاكم إذا انحرف كما تحسن مؤازرته عندما يستقيم: "**أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم**".

ويستفزّ عمر رضي الله عنه أثناء خلافته المسلمين وهم مجتمعون في المسجد ليرى مدى رفضهم للاستخفاف وتمسّكهم بالعزّة والكرامة فيسألهم: "**ماذا أنتم فاعلون لو رأيتموني ملت هكذا؟**"، **فيجيب واحد منهم: "نقوّمك بالسيف"**، فيقول له الخليفة كالمتثبّت منه، أهو موقف مبدئي أم ردّ فعل متسرّع فقط: "**أنظر ما تقول**"، فيصرّ الرجل: "**والله لنقوّمنّك بحدّ السيف**"، هنا يفصح الفاروق عن قصده من السؤال الاستفزازي ويقول: "**الحمد لله الّذي جعل في الرعيّة من يقوّم عمر إذا انحرف**".

وعندما شكّل الخوارج ما يشبه المعرضة الصارمة لحكم علي رضي الله عنه لم يضق بهم ذرعاً بل طمأنهم على أرواحهم وحقوقهم لدى الدولة مادام موقفهم سلمياً لم يحكّموا فيه السّلاح.

هذه هي الظاهرة الصحيّة: مجتمع حيّ غيور على حرياته وحقوقه وإنسانيته لا يذعن لمن اعتدى عليها مهما كانت ذرائعه، وهذا في حدّ ذاته وقاية من الاستبداد، فإذا ظهرت الصّفات الفرعونيّة وطغت على الحكم الرّاشد كان من اليسير مواجهتها وصدّها والرّجوع إلى الوضع الطبيعي.

ولا غــرو أنّ لعلمــاء الــدّين دوراً محوريّــاً في هــذا الشــأن، إذ لا تستطيع السيّاسة طمس خطابهم المحيي للعقول والقلوب الّذي تهوي إليه الأفئدة ويأوي إليه المضطهدون وترتعد منه فـرائس المتسـلّطين، وقد أدّى مهمّة تحصين الأمّة من القابليّة للاستخفاف خلق لا يحصى من علماء الإسلام عبر العصور، من الأئمّة الأربعة وسعيد بن جبير مروراً بابن تيميّة وابن عبد السّلام ووصولاً إلى بعض شيوخ الأزهـر الأباة وقادة الإصلاح في أكثر من بلد مسلم.

ويمكننا تلخيص مهمّة "جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين" بقيادة الإمام عبن الحميد ابن باديس أثناء الاحتلال الفرنسيّ في هذه الغايـة بالضـبط، فقبل حمل السّلاح في وجه المستعمر عملت علـى تطعيـم الشـعب بقيّم الإسلام ليتجاوز مرحلة القابليّة للاستعمار ويخلّص ذاته مـن جراثيمهـا القاتلة، وعندما كانت الجمعيّة تخدم هذا المقصد بواسطة التربيّة والتعليم والتوعيّة، كان مالك بن نبي يتناوله بالتحليـل وتسـليط الأضـواء وبيـان الخلل في نسيج الأمّة، فكان هـو يمعـن في التشـخيص العلمـي النظـري بينما تتولّى محاضن الجمعية ورجالها وصحافتها مهمّة العلاج الميداني.

وإذا كان نموذج فرعون يتكرّر عبر الزّمـان والمكـان فـإن السّـاحة الإنسانيّة لا تعدم نموذج موسـى -عليـه السـلام- في صـورة علمـاء الدين الربانيين العاملين.

وينبغي أن نشير إلى أن الغرب تمكّن بعد تجارب استغرقت قرونـاً أن يحصّن شعوبه من داء القابليّة للاستخفاف بوضـع آليـات وإنشـاء

مؤسّسات تتولّى تسيير شؤونه بشكل يمنع نهائياً النموذج الفرعوني أو يكاد (هذا بالنسبة لحياة الغرب الداخليّة، أمّا علاقاته بالشعوب الأخرى فأمر آخر إذ يكيل بمكيالين ويحكّم معيارين كما هو معروف)، وقد نجح أيّما نجاح في ذلك، ومع احتفاظنا بشخصيّتنا وخصوصيّاتنا الدّينيّة والحضاريّة فإنّه يجدر بنا إسناد أمورنا لمؤسّسات ذاتيّة قويّة والاحتكام إلى آليّات مضبوطة تمنع الانحراف من جهة والقابليّة للاستخفاف من جهة ثانيّة... على هذا يجب تربية أبنائنا وجماهيرنا حتى يبغضوا الفرعونية أشدّ البغض ويحترسوا أشدّ الاحتراس من الخواء الروحي وضعف الفاعلية وتفرّق الكلمة التي تبذر ببطء بذور القابلية للاستخفاف، هذه الحالة التي تعتبر معصية دينية (إنهم كانوا قوما فاسقين) وإرهاصا بموت الأمّة، فلا يجوز لنا التساهل مع من يستسيغون الفرعونية ويبرّرونها بذرائع مختلفة ويدعوننا إلى الصبر بمعناه السلبي المتمثّل في طأطأة الرؤوس والانسحاب من ميادين إثبات الذات والعمل بقاعدة التصوّف الأعجمي"دع الخلق للخالق والملك للمالك"، إنّنا في حاجة إلى التشبّع بثقافة العزّة والكرامة والهمّة العالية حتى نرتقي إلى مصافّ الأمم التي تستحقّ تولّي مهامّ الخلافة والعمارة والتمكين في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ سورة المنافقون8.

المقالة الثالثة

النموذج القاروني

ذكر اسم قارون في كتاب الله مقترناً بفرعون وهامان، وثلاثتهم نماذج سيئة تشير - على التوالي - إلى المستبدّ الّذي أطغاه الملك العريض، والوزير الّذي يزيّن له الباطل ويشاركه فيه، والغنيّ الّذي أطغته الثروة الكبيرة، ورغم أنّ قارون رجل إسرائيلي ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ سورة القصص76 إلاّ أنّ صفاته تجعله من الملإ الفرعونيّ الّذي يلازمه الكفر والضّلال والفساد، فلا يعنينا "قارون" كشخص وإنّما نتناوله كنموذج للغنيّ الكافر بنعمة الله، والّذي يصلح أن يخضع لدراسات نفسيّة ومجتمعيّة معمّقة لأنّه متواجد في الدنيا الناس بخصائصه وصفاته، يفتنهم ويستفزّهم في إيمانهم ويكون سبباً لانحراف كثير منهم، كما يستفزّ الدّعاة والعلماء ليكونوا بالمرصاد له، يعظون ويحذّرون ويعملون على حماية المجتمع من إسرافه وبغيه.

لقد وردت قصّة قارون في سورة القصص من الآية 76 إلى الآية 82، ولنا معها وقفات:

إنّ هذا الرّجل من بني إسرائيل الّذين كانوا أقليّةً عرقيّةً ودينيّةً تعيش في مصر زمن الفراعنة ومنذ عهد يوسف -عليه السلام- وكان صاحب ثراء فاحش جعله يتميّز عن قومه المضطهدين وينظمّ إلى صفّ عدوّهم، فكان عامل ظلم إضافيّ لهم: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾، والّذي

جعله يبغي هو ثروته الهائلة: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾، وكان ينبغي أن يستعمل هذا المال الوفير لمساعدة قومه اقتصادياً واجتماعياً ليخفّف عنهم طغيان فرعون، لكن المال انقلب إلى عنصر يجلب لصاحبه الخيلاء ولشعبه مزيداً من الشّقاء.

أمام قارون وثروته الطائلة انقسم قومه إلى فئتين: واحدة يبصّرها العلم، والأخرى تحرّكها النزعة الماديّة، أمّا العارفون بحقيقة المال وتأثيره على النّفوس الضّعيفة فقد أسدوا لصاحبهم الغنيّ النّصح:

- ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾: حذّروه من الغرور الّذي يجعل الإنسان يستغني عن الله تعالى لأنّه -في ظنّه- لم يعد في حاجة إليه، فهم لا يدعونه إلى الحزن ولكن إلى التواضع ون الغرور و لزوم موقع العبوديّة لله.

- ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾: هذا القول يدلّ على فهم عميق لوظيفة الإنسان في الحياة، فالمؤمن يشتغل بالدنيا والآخرة معاً، ويعطي لكلّ منهما من الاهتمام بقدر مكثه فيها، لذلك ذكّروه بالباقية أوّلاً، وهذا هو الوضع الطّبيعيّ الّذي يضع فيه الإسلام كلاّ من الدنيا والآخرة، فلا رهبانيّة تفوّت مصالح الدّنيا، ولا ماديّة تجنح بالإنسان فلا يعبد ربّا و لا يلتفت لموت ولا بعث ولا نشور... بهذا تكون السعادة.

- ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾: الغنيّ -أكثر من غيره- يرى نفسه يتقلّب في أعطاف النّعيم، ويرى يد الله تغدق عليه في كلّ حين من أنواع العطايا، فلا يعيش لنفسه فحسب وإنّما يسهم غيره في ثروته فيكون عنصراً إيجابياً في المجتمع يتواجد بالبذل في أوجه البرّ وساحات الخير، يقابل الإحسان الإلهي بإحسان إلى ذوي الحاجات، شكرا لله على أفضاله.

- ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: رأى هؤلاء العارفون أنّ التديّن الحقيقي -بالنّسبة للغنيّ- لا يقتصر على الإنفاق من ماله فحسب ولكن يشمل من الجهة الأخرى الإمساك عن توظيف المال في أي مشروع يفسد الاقتصاد أو الأخلاق أو الأذواق، لأنّ المال الوفير يغري صاحبه بهذ، ومصداق ذلك في فضائيّات الرّذيلة وجرائدها الّتي يمتلكها المسلمون فضلا عن غيرهم.

ومن المفروض أن يكون لصاحب الأموال المتنوّعة حضور إيجابي في مجتمعه يساهم في خدمته ونشر الصّلاح فيه من خلال الاستثمار والإنفاق، ولأنّ الفساد نتيجة اغترار الرّجل بثروته ومكتسباته فقد كرّروا عليه ما يبغضه الله:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

وقارون من شعب بعث فيه الأنبيّاء وأنزل عليه الكتاب، فلعلّ هذه الموعظة ترقّق قلبه وتفتح ذهنه على الحقائق وتردّه إلى المنهج

القويم، لكن افتتانه بوضعه الاجتماعيّ لم يزده إلاّ غيّاً: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾... هذا ما يحدث للمغرورين دائماً، يؤتيهم الله النعم فيأخذهم البطر، وتتضخّم ذواتهم ويجحدون المنعم، ويمكننا ملاحظة هذا الزهوّ والاعتزاز بالقوّة الماديّة في الغرب، فهو"فرح فخور"، يعلن أنّه لم يعد في حاجة إلى الله لأنّ العلم الّذي يمتلك ناصيّته يجيب عن كلّ الأسئلة ويفسّر كلّ شيء ويحلّ كل المعضلات، وكانت النتيجة هذا الاستعلاء في الأرض وهذا البغي والفساد الّذي أصاب شرره البشريّة كلّها، فأنّى لهذا النموذج القاروني أن يراجع نفسه ويتواضع ويستمع للنصيحة ويستخدم عناصر القوّة في الخير لا في الشرّ؟ حتّى دروس التّاريخ الواضحة الجليّة لا تنفع معه﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾.

لا شكّ أن قارون رأى عاقبة أمثاله لكنّه لم يتّعظ، والغرب يعرف عوامل سقوط الحضارات الّتي ينتسب إليها، وعلى رأسها اليونانيّة والرومانيّة، لكنّه لا يتّعظ ولا يرعوي رغم صيحات كثير من عقلائه، تماماً كما حدث مع قارون.

كيف قابل الرّجل الثريّ هذه النّصائح الأخويّة؟ لقد صمّ أذنيه وأغمض عينيه ومضى في تطاوله وبغيه وإصراره على المنهج الماديّ وتمادى في سيرته بل عمد إلى تحدّي مجتمعه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾، وكان للأبّهة الّتي خرج فيها وقع على قسم من النّاس هم أهل الحرمان والفقر بالدّرجة الأولى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ

أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾»، هكذا كان فتنةً للناس فتمنّوا مثل ما هو عليه من التنعّم والسّعة الماديّة، واعتمدوه كمعيار للسعادة، لكنّ قسماً آخر منهم لم يخلد إلى النظرة السطحيّة والمقياس الماديّ الأرضيّ، ولم ينبهر بمظاهر الثراء والترف: «وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾».

من هؤلاء العارفون بحقائق الأمور؟ إنّهم أولو العلم، لكنّه علم آخر يقابل العلم الّذي استند إليه قارون في تعاليه وبغيه: «إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ»، وشتّان بين علم محصور في الماديّات الّتي تقود إلى الغرور وبين العلم الّذي يدرك الحقائق ويميّز بين الباقي والفاني وبين الأساسي والثانوي، هؤلاء الناصحون حصن لقومهم من السقوط الجماعي والاستسلام -ولو النفسي- للكبراء وأصحاب الثروات، وقد بيّنوا أن الميزان الواجب اعتماده هو الإيمان والعمل الصالح، فهو الّذي يجلب الثواب، وثواب الله خير من قارون وأمواله ومكانته وما يمكن أن يدرّه على المفتونين به، وقد انتبهوا إلى عنصر على درجة كبيرة من الأهميّة هو الصّبر، ويشير إلى ثبات القلب أمام الإغراء الماديّ الّذي يزلزل النّفوس ويحتاج لمقاومته إلى قوّة كبيرة للتحكّم في النّفس.

ولا يخفى أن غير قليل من المسلمين مفتونون بالتفوّق الغربيّ إلى درجة انهيار نفسيّاتهم وتنكّرهم للدين والهويّة لهثاً وراء البهارج والملذّات، لا يميّزون بين محاسن الغرب ومساويه، بل الغرب كلّه

إيجابيّات في نظرهم، والشرق هو السلبيّ والسيئ في كلّ شيء! وما فتئ العلماء والدّعاة يقومون مقام أولئك الناصحين من قوم قارون يدعون إلى اعتماد المقاييس الموضوعيّة بدل ردّ الفعل العاطفيّ البعيد عن العلم.

وقد أراد الله تعالى أن تكون عاقبة قارون غير عاديّة لتكون العبرة أبلغ لكلّ مفتون: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ ، لقد ابتلعته الأرض (بزلزال أو غيره مما شاء الله من العوامل) هو وداره، فلم تسعفه ثروته ولا حاشيّته ولا المعجبون به: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾.

ظهر ضعفه وضعف كلّ فئة كان يمكن أن تحميه، أي ظهر خطأ الاعتماد على المعيار الماديّ، وقد هضم هذا الدّرس -بعد نهاية قارون المأساويّة- ذلك القسم من الشعب الّذي حال حجاب المعاصرة بينه وبين إبصار حقائق الأمور، وكان منبهراً بالثروة والمكانة الاجتماعيّة: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

والسّعيد من اتّعظ بغيره، والمصيبة أن يعمى بعض النّاس عن وصايا الوحي ودروس الحياة ورصيد التّاريخ، فلا يستفيقون من غفلتهم الفكريّة إلاّ بعد أن ترتطم رؤوسهم بصخور القدر ويتعظوا بأنفسهم، وهذا -مرّةً أخرى- حال المسلمين المنبهرين بالنموذج القارونيّ المتمثّل في الغرب الماديّ المتغطرس.

وما أجمل ما ختمت به قصّة قارون: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾، هـذه هـي المقـاييس السماويّة الّتي يطمئنّ إليها المؤمنون فيضعون المال وغيره من عناصر الحياة في موضعها الطبيعي بعيداً عن دورة العلوّ والطغيان والفساد.

وقد ورد ذكر قارون في موضعين آخرين مقروناً مباشرةً بفرعون وهامان رغم ما كان يفرّق بينه وبينهما من العداوة المعروفة:

- ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ سـورة العنكبوت 39

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ سورة غافر 23 - 24.

إنّ الثّراء الفاحش لم يقد هارون إلى الزهوّ والغرور فقط بل رمى به في أودية الكفر مثله مثل فرعون وهامان... هذا هو النموذج القارونيّ الّذي يتكرّر عبر الزمان والمكان في الأفراد والدوّل.

المقالة الرابعة

حين تنهزم الأمة نفسيا

كيف وصلت الحال ببني إسرائيل إلى أن يخاطبوا نبيهم موسى -عليه الصلاة والسلام- بمثل هذه العبارة الوقحة التي تنمّ عن قلة أدب سافرة مع الله ورسوله إلى جانب خسة النفس والقعود عن تحرير الأرض المغتصبة؟ ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ٢٤﴾ سورة المائدة 24.

إن ذلك الشعب "المختار" كما يزعمون حباه الله وأغدق عليه النعم المادية والمعنوية فأدى ذلك إلى نتائج عكسية إذ أخلد إلى الأرض واعتمد على السماء في كل شيء بواسطة طلبات موجّهة لموسى عليه السلام، ينتظر المعجزات لتتولى إطعامه وسقيه وتحرير بلاده وحل مشكلاته، واستمر الأمر إلى درجة الضمور الكامل للجانب الإنساني عند القوم، فهذا الموقف المخزي من الجهاد لإخراج المغتصبين تتويج لسلسلة من المواقف السلبية، فقد تولى الله تعالى توفير الرزق لهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ سورة البقرة 58، ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ سورة البقرة 57، فلم يحمدوا النعمة بما يناسبها من عمل وعطاء بل نبذوا كل مجهود ذاتي وتدللوا على الله بدل أن يزرعوا ويغرسوا ليأكلوا ما يشاؤون: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ سورة البقرة 61، فهذا

اعتماد على الدعاء غير المباشر في مواطن الاعتماد على العمل وبذل الجهد والأخذ بالأسباب مع الدعاء.

وعندما احتاجوا إلى الماء لم يحفروا الآبار كما يفعل الناس جميعا وإنما طلبوا الماء عن طريق المعجزة وألحوا على نبيّهم فتوّجه إلى ربّه الذي لا يردّ دعاؤه: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ﴾ سورة البقرة 60.

وقد تكرر الأمر وبصورة أكثر وقاحة مع المسيح عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ﴾ سورة المائدة112، ثم فصلوا فقالوا: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾.

وعندما قتل فيهم قتيل لم يعمدوا إلى عملية التحقيق والتحري للكشف عن الجاني بل تقاعسوا حتى تدخلت السماء مرة أخرى لتحلّ المشكلة بطريقة معجزة كما تدلّ على ذلك قصة البقرة التي سُميت بها القصة: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ سورة البقرة 72-73.

لكن السلبية بلغت مداها عندما قعدوا عن القتال الشرعي ورفضوا السعي إلى تحرير أرضهم المحتلة وأوكلوا المهمة إلى السماء: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ سورة المائدة 24، جاء قرارهم الحازم هذا بعد ان ندبهم

وهذه السلبية ليست خصيصة يهودية -بل إن اليهود تخلصوا منها عبر العصور- لكنها صفة قد تلتصق بأي قوم أساؤوا فهم العلاقة بين الإنسان والسماء وبين الإنسان والكون فضمرت قدراتهم الذاتية فأعرضوا عن الإيجابية والمبادرة وتفجير الطاقات من أجل عمارة الأرض وأداء مهام الخلافة في مجالات الاقتصاد والسلم والحرب والعلاقات البشرية مع اهتداء دائم بالوحي المنزّل، وإن المسلمين قد أصابهم في زمن الضعف ما أصاب بني إسرائيل قديما وإن اختلفت الصور والأشكال حتى وجد فيهم من يظنّ أن النفط مثلا نوع من المنّ والسلوى أي عطاء علوي يغني عن العمل والسعي، لذلك جاءت أزمة تلازمت فيها الضائقة الاقتصادية وضياع الحرمات وتغلب العدوّ الغاصب،ولن تحلّ المشكلة إلا بتطليق السلبية وتفتيق الطاقات الإنسانية المبدعة بهدي من الوحي الرباني، وإلاّ مضت فينا سنة الله الغالبة كما مضت قديما في بني اسرائيل.

المقالة الخامسة

الصف المؤمن لا يضعف ولا يستكين

جبلت النفوس على التأثر بالهزيمة، ويزيد تأثرها حدّةً إذا حدثت الهزيمة بفعل عوامل خارجية موجّهة صارخة فيؤدّي ذلك إلى ألوان من الوهن والضعف والاستكانة، وهي تكريس فعليّ للهزيمة وإيذان بتجذّرها، لكنّ نفوس المؤمنين التي احترقت بالتربية الإيمانية تشذ عن القاعدة فلا تزيدها الانتكاسات المبرمجة والمعارك الظرفية الخاسرة إلاّ إيماناً بإطراد سنّة الابتلاء وتمسكاً بالمنهج الرباني والغايات السامية بعيداً عن كلّ أنواع الانكسار والتخاذل.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ سورة آل عمران146.

هذه الجماهير المؤمنة الغفيرة تنالها سنّة الابتلاء وتعترضها بعض الهزائم الجزئية فتقابلها بمواقف إيمانية ثابتة تنفي زلزلة الصفوف وخلخلة النفوس والركون إلى الاستسلام والقعود.. نعم، هناك إحساس بأنياب الألم تدمي القلوب، لكنّه يورث الإيجابية بدل السلبيّة، ويقوي العزائم بدل توهينها، ويأتي التعبير القرآني دقيقاً جامعاً، فالصدمة غير المحروسة بالإيمان الراسخ تبدأ بالضعضعة في الصف لتنتقل إلى النفوس في شكل ضعف وتلاشٍ للقوة الروحية المعنوية، وتنتهي بالاستكانة والقعود والانسحاب من ساحات العمل

والتضحية، وأمّا الزمرة الربانية فإنها سرعان ما تفيق من وقع الضربة غير المنتظرة وتتصدّى لمواصلة الطريق الدعويّ أو الجهاديّ والسياسي في صفّ مرصوص وبمعنويات مرتفعة وإقبال عنيد على الحضور الفعليّ المجدي في المجال الّذي يظنّ الخصوم غير الشرفاء أنّهم أبعدوها عنه بوسائلهم المثبّطة الكثيرة، وإنّ مكرهم لتزول منه الجبال... بهذا الثبات الواعي يتمّ بناء لبنة وسط الإكراهات الطبيعيّة والمصطنعة، والأمر كلّه يدور حول الصبر أي الاستعداد المغروس في النفوس البشرية والصف الرسالي لتحمّل المكاره المادية والنفسيّة في سبيل الغاية الخالصة من الحظوظ الذاتيّة، وإذا كانت الرؤية بهذا الوضوح تفقد الصدمات فعاليتها السلبية وتتحوّل إلى محفّزات تقوي العزائم وتعين على طول الطريق وعقابيله. فمن أين للصفّ المؤمن أن يجزع أو يفزع أو يخور أو يستقيل؟ لكن يجب الانتباه إلى أنّ السلامة من الوهن والضعف والاستكانة والتحلّي بالعزيمة والقوّة والإقدام لا يعفي الحركة من النقد الذاتيّ، فقد يكون الخير الّذي فاتها والشرّ الّذي نالها ابتلاء تصبر عليه كما قد يكون عقوبة على أخطاء روحية أو حركيّة سياسية يجب الالتفاف إليها بالمعالجة من غير تردّد، وبعيداً عن ذهنيّة التآمر والتبرير، بهذا تخرج الحركة من التجربة برصيدٍ أكثر ثراءً لتواصل السير المرحليّ مطمئنّة إلى ثبات الأبناء وثقة الجماهير ورعاية الله تعالى قبل ذلك وبعده... هذه طريق الإيجابية والهمّة والرسوخ والنص، وفقه المعوّقات والهزائم أمرٌ ضروريٌّ وبالغ

الأهميّة للصفّ الإسلامي لأنّ سيرته محفوفة بمخاطر متنوعة تحتاج إلى العلاج المناسب في حينها وإلاّ جرت الويلات، ذلك أنّ مرارة الهزيمة أو الظلم الّذي لا يمكن دفعه قد توحي إلى المنهزم أو المظلوم ردود أفعال آنية تغلب عليها العاطفة فلا تبصر مواطن الخطر، لأن الشحنة الانفعالية لم تترك مكاناً لنظرة العقل، فقد يظنّ الناس أن نفي الضعف والاستكانة عنهم يعني ردّ الفعل العنيف أو الفوري أو الحماسي، وهذا فهم خاطئ، لذلك أكّدنا على ضرورة الفقه أي الفهم العميق الدقيق الّذي يوازن بين نصوص الشرع ومتطلّبات الواقع، وهو الفقه الّذي ظهرت ثمراته الطيّبة بعد صلح الحديبية الّذي رأت فيه النظرة السطحيّة -وهي في الوقت نفسه مفعمة بالإيمان القويّ- ضعفاً واستكانة، فتبيّن أنّ الصلح كان فتحاً مبيناً ولكنّ حجاب المعاصرة حال دون إبصار ذلك إبّان إبرامه.

ومن أبرز التجارب الّتي مرّت بالصفّ الإسلامي في الحقبة الأخيرة ما حدث لحزبٍ إسلامي في الجزائر رفض "الضعف والاستكانة" فتمرّد على حرمانه من الفوز الانتخابيّ بكلّ قوّة بعيداً عن الدراسة الهادئة والتخطيط، فاستدرج الحزب والمجتمع كلّه إلى فتنة عمياء ولّى معها العمل الإسلامي والتجربة الديمقراطية أدراجها أمداً بعيداً.

أمّا التجربة الأخرى فقد حدثت في تركيا، وتكررت بأشكال أخرى منذ ستينات القرن العشري، وكان طرفاها دائماً الجيش الحارس للعلمانية من جهة والإسلاميين من جهة ثانية، فهؤلاء

تجاوزا كلّ العراقيل القانونية والسياسية والعسكريّة بطرق سلميّة ذكيّة، فكلّما حلّ العسكر حزبهم أنشؤوا حزباً آخر أو غيّروا الاسم أو حملوا إلى الواجهة وجوهاً جديدةً، فكانت النتيجة أنّ استمرار المواجهة بين الطرفين لم يقضِ على الإسلاميين ولا حيّدهم ولا أخرجهم من ساحة الوجود في تركيا لأنهم لم يضعفوا ولم يستكينوا وفي نفس الوقت لم يتركوا الانفعال يقودهم إلى مواقف وخيمة العواقب، حتى أذن الله أن يتبوءوا مركز القيادة والريادة بكلّ جدارة وبالطرق الطبيعية بعيدا عن العمليات القيصرية.

والعبرة من كلّ هذا أن ثبات الصفّ الإسلامي بناءً على الفهم العميق بمختلف جوانب الموقف والتحلّي بالصبر الإيجابي هو المنهج الضامن للسلامة والاستمراريّة، إذا أردنا الانخراط في حركة الفعل الجدي والتغيير المنهجيّ المستصحب لعبر التاريخ وأدوات النجاح، والفقه الّذي أشرنا إليه ضروري لا يمكن الاستغناء عنه بأيّ حال لأنّه يمدّنا بالمعرفة اللازمة فيلجم نزوات العواطف بنظرات العقول فلا تطغى المشاعر ولا يغيب العلم وإنّما تحدث النتائج الصحيحة كلّما استوت معادلة المشاعر والمعارف على قاعدة التوازن في خطط الحركة الإسلامية وتشربها أفردها وأخذوا بها كمنهج أصيل يحرصون عليه كحرصهم على الدعوة نفسها، ذلك أن سلامة الغاية من سلامة الوسيلة، وهذا ما يمكن الوقوف عليه في صلح الحديبية المشار إليه سواءً في بنوده الّتي يبدو عليها الإجحاف في حقّ المسلمين أو تطبيق

بعض هذه البنود مباشرةً بعد التوقيع، فالصحابة الّذين أحسّوا بالأسى وتجرّعوا الحيف من الناحية النظرية وصفهم يقبل شروط قريش لم يكادوا يسترجعون أنفاسهم من هول هذه الصدمة حتّى بدأ تطبيق الاتّفاقية في الواقع واضطرّ الرسول ﷺ -وفاءً بالعهد- إلى ردّ من جاؤوه مكبلين بالسلاسل أمام أعين الصحابة الّذين لم يعودوا تحت وطأة معاهدة مختلّة مجحفة فحسب بل شاهدوا بأعينهم تطبيق بعض بنودها، لكنّهم تحكّموا في عواطفهم وتجاوزوا ما يرونه بأعينهم واطمأنّوا إلى ما رآه قائدهم عليه الصلاة والسلام بالوحي، فهم لم يهنوا لما أصابهم من ضرر نفسيّ ولم يرضخوا للأمر الواقع بل بدأ التعامل الذكيّ مع الوضع الجديد أثناء المحنة نفسها، فقد أشار الرسول ﷺ إلى من جاءه مسلماً واضطرّ إلى ردّه بأنّ الله سيجعل له مخرجاً ففهم الرجل الإشارة وتخلّص في الطريق من حراسه وأقام مع بعض رفقائه نقطة توتّر تؤرّق المشركين فما كان من هؤلاء إلاّ أن يتنازلوا هم عن الشروط التي كانوا قد أملوها على الطرف الإسلاميّ أثناء المفوضات.

إن الصفّ الإسلامي يحزن ويتألّم لما أصابه من مكرٍ وتآمرٍ لكنّ ذلك لا يخلد به إلى الأرض بل يبقى ممسكاً بأسباب النهوض والعودة ويعالج جراحاته النفسية وتتضاعف عنده المبادرة والجرأة وإرادة النجاح، وهكذا لا تثنيه دركات الهبوط عن طلب مراقي الصعود ولا يثبّطه إخفاق ظرفي عن اقتحام ساحات العمل والفوز، وهو على كلّ

حال يتحرّك "في سبيل الله" فيرضى بكلّ ما يصيبه في هذا السبيل فهو سؤدد في الدنيا وذخر في الآخرة.

ويعطينا الرسول ﷺ درساً عملياً في هذا المعنى بعد غزوة أحد، فقد حدث الانكسار في الجولة الثانية من القتال ودارت الدائرة على المسلمين فأعمل فيهم المشركون السيف وقتلوا سبعين من صناديد الصحابة رضي الله عنهم ونفذوا إلى النبي ﷺ نفسه وطمعوا في قتله بل شاع خبر قتله حتّى كاد يوهن الصف الإسلامي، ثمّ تداركه الله بلطفه فانسحب الجيش الكافر ورجع المسلمون إلى المدينة منهكي القوى مهيضي الأجنحة، ولو بقي الأمر بهذا الوضع لأمكن أن تتسرّب الهزيمة إلى نفوس كثير من الصحابة ولعلت راية الشرك بالزهو، لذلك أقدم الرسول ﷺ من الغد على خطوة فذّة جريئة تثلج صدور المؤمنين وتعكّر على المشركين نصرهم أي تنقل الهزيمة النفسية -الوهن والضعف والاستكانة- من الصف المنهزم في المعركة العسكريّة، فيسترجع عافيته النفسيّة إلى الصفّ المنتصر فيصبح هو المنهزم حقّاً... يقول الشيخ صفي الرحمن المباركفوري في كتابه "الرحيق المختوم": **"وبات الرسول (أي بعد العودة إلى المدينة من أحد) وهو يفكّر في الموقف، فقد كان يخاف أن المشركين إن فكّروا في أنّهم لم يستفيدوا شيئاً من النصر والغلبة التي كسبوها في ساحة القتال فلا بدّ أن يندموا على ذلك ويرجعوا من الطريق لغزو المدينة مرة ثانيّةً فصمّم على أن يقوم بعمليّة مطاردة الجيش المكّي(...) فنادى النبي ﷺ في الناس وندبهم إلى**

المسير إلى لقاء العدو وذلك صباح الغد من معركة أحد (...) وقال: لا يخرج معنا إلا من شهدوا القتال (...) واستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد والخوف المزيد وقالوا: سمعاً وطاعةً (...) وسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه حتّى بلغوا حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة فعسكروا هناك (...) وحينئذٍ انهارت عزائم الجيش المكي وأخذه الفزع والرعب فلم ير العافيّة إلا في مواصلة الانسحاب والرجوع إلى مكّة (...) وممّا لا شك فيه أن غزوة حمراء الأسد ليست بغزوة مستقلّة إنّما هي جزء من غزوة أحد وتتمّة لها وصفحة من صفحاتها" (ص 286 -287 بتصرّف).

هكذا ثبت الرسول ﷺ نفوس المسلمين بتدبيره الحكيم وجعل المشركين على شعور أدنى إلى الهزيمة منه إلى النصر، فالنهاية لم تكتبها وقائع ميدان القتال وإنّما نفوس الرجال، ونفوس قويّة مدجّجة بالثقة هناك ونفوس اعتراها الخوف هناك.

هذا وقد ورد نهي المؤمنين عن الوهن بكلمات قرآنية صريحة:

- ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ آل عمران 139.

- ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ محمد 35

- ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ النساء 104.

والوهن هو الخطْوة الأولى في الهزيمة النفسيَّة، فنهى الله عنْـه حتـى لا يفضي إلى ما بعده من الضعف والاستِكانة.

المقالة السادسة

الصبر واليقين في حياة المسلم

تمرّ بالمؤمن وبالأمّة فترات من التحديات البالغة والصعاب الجمّة لا يمكن مواجهتها ولا تجاوزها إلا برصيد وافر من الصبر العملي واليقين المبدئي، وهذا الرصيد يرشّح أهله لنيل درجة الأستاذية الاجتماعية، وهو ما تؤكده السنة الربانية التي رسمتها الآية الكريمة ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ سورة السجدة 24، فصاغ العلماء هذه السنة صياغة جميلة بقولهم"بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين"، وكيف ترنو أبصار المؤمنين إلى قيادة ركب البشرية بشرع الله وتهفو أفئدتهم إلى ذلك إذا لم يُثبتوا في واقعهم الدعوي والشخصي والاجتماعي جدارتهم عبر الصمود الواعي والثقة الكاملة في صحّة المرجعية والمنهج وحتميّة المآل؟ ومواجهة الباطل المنتفخ في ساحة التحدّي والظلم شيء آخر غير التناول النظري في قاعات الدرس وحلقات المساجد، ولم يستحقّ الأنبياء الكرام وبعدهم صحابة رسول الله ﷺ منزلة القيادة الروحية والاجتماعية للبشرية إلاّ بعد أن جسّدوا القيم التي يبشّرون بها في حركة التدافع الاجتماعي وما تستصحبه من ألوان العنت والتضييق، فما خرّت عزائمهم ولا تسلّل الوهن إلى دعوتهم ورؤيتهم، فلمّا صدقوا الله صدقهم، وأجرى سنّة النصر والتمكين بعد الابتلاء والتمحيص.

- **عدة الصبر**: إن الصبر الذي يبدئ فيه القرآن ويُعيد يشتمل على معاني امتلاك اللبّ والعقل ورباطة الجأش في ساعات المحن الشديدة

والتحدّي البالغ، فهو ضدّ الطيش والخور سواء، ويشير إلى تحمّل المؤمنين للعنت النفسي والمادي، بصوره الإيجابية منها والسلبية، كالثبات في ساحة المواجهة العسكرية والفكرية والسياسية والحضارية، وتحمّل مرارة حملات التشويه والانتقاص، والاستمرار في النهج السلمي رغم إغراءات السلاح والتصعيد العنيف أثناء النزاعات الداخلية التي تُلمّ بالمجتمع، وقد ضرب الرسول ﷺ أروع الأمثلة في كلّ هذه المجالات في مكّة والمدينة، ولولا صبره الكبير الطويل ما استطاع امتلاك قلوب القرشيّين في نهاية المطاف رغم ما أصابه منهم من أشكال الأذى التي كانت لتستدرجه لحمل السلاح في وجه قومه لولا توفيق الله تعالى الذي أفرغ عليه صبرًا وحبّب إليه الخيارات السلمية الأكثر جدوى، وذلك ما يظهر في عرض ملك الجبال عليه أن يطبق الخشبين على مناوئيه فأعرض عن الثأر والانتقام ومال إلى الطريق الطويل المضمون العواقب وقال: "**أرجو أن يخرج الله عزّ وجلّ من أصلابهم من يعبده ولا يشرك به شيئا**" رواه البخاري ومسلم.

أمّا في المدينة المنوّرة فكان عليه ﷺ أن يواجه المشركين المتربّصين بالإسلام وأهله من القبائل العربية والدولة الرومانية ويتيقّظ في ذات الوقت للمنافقين المتواجدين داخل الصفّ الاسلامي، المتظاهرين بالانتماء العقيدي إليه بينما هم يجوسون خلاله بأنواع المكر والكيد، ومع أن النبي ﷺ يعرفهم إلا أنهم لبث إلى حين وفاته يصبر عليهم، وكان يمكنه أن يقضي عليهم لكنه خشي قول الناس إن محمدا يقتل

أصحابه، وإنه لأمر جلل أن يتحمّل الصحابة مثل هذا الواقع، لكن هذا ما أمروا به: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ سورة الأحقاف 35

وكـان الـقرآن الـكريم يذكّرهم برصيد التجربة عند من خاضوا بتوفيق وسداد تجربة حمل الرسالة: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ سورة آل عمران 146-147.

تحمّل ورثة الأنبياء من حملة الرسالة بصبر جميل كلّ ما أصابهم في سبيل الله، فحفظهم الله من كلّ أنواع الهزّات النفسية المهلكة كالوهن والضعف والاستكانة، أي من الاستسلام للواقع المرير ومن الهزيمة النفسية التي تفضي إلى الانسحاب من ميدان المواجهة والدعوة والتدافع، ومن الملفت أنهم لم يُلقوا باللائمة على العدوّ الخارجي بل اشتغلوا بالإقبال على الله وتزكية النفوس بالتوبة ليستحقّوا تنزّل النصر من عند الله.

ولهذا كان شعار العصبة المؤمنة دائما أمام أقوامهم المخالفين لهم: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ سورة ابراهيم 12

يؤثرون تحمّل الأذى على الفتنة الداخلية التي لا تفيد الأمة والدعوة في شيء، بهذا انتصروا..وباليقين كلّلوا نصرهم.

- **ذخيرة اليقين** إذا كان الصبر يشير إلى الناحية العملية السلوكية عند الفرد والأمة فإن اليقين هو معيار القلوب و العقول، يتناول الجانب

الفكري المبدئي، وهو الثقة الكاملة في أحقية الرسالة وسلامة المنهج وحتمية النصر والتمكين، فالصفّ الاسلامي لا يساوره ريب في أنه على الحق طالما أنه مستمسك بوحي السماء وأن الله ناصره لا محالة، لا يبرح مربّع اليقين مهما انتفخ الباطل وانتفش، ومهما بدت علامات الضعف على الجماعة المؤمنة في حالات الضراء، لأنّ الحق حقّ دائما، ولو اغترّ المغترّون في وقت من الأوقات بهذا الباطل وقوّته وسطوته وتبرّجه، وإنما يحزّ في نفوس المؤمنين ما يكون عليه بعضهم من التباس بين حق أبلج وبين الباطل وهو سافر، عندما تعمل الشائعات والتلاعب النفسي والمصالح القريبة فعلها فتصيب بعض الرموز فيكونون فتنة لبعض المخلصين وأصحاب التديّن العاطفي، يظهر يقين المؤمنين عند غلبة الشبهات أحيانا وغلبة الشهوات أحيانا أخرى، أما المتسلحون باليقين فلا يزيدهم التحدي الكبير إلا عزيمة وإصرارا وثباتا: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ سورة آل عمران 173

ليس هذا كلامًا ماضويًا بل هو معالم إيمانية تهدي السالكين لطريق نصرة الدين وخدمة الأمة في كلّ زمان، يبقى غضًا طريًا مهما تباعدت الأحقاب واختلفت الأمصار، أكّدت الأحداث جدواه مرّة بعد مرّة كلّما واجه المسلمون حالات العدوان والتحدّي، وجرّبه الدعاة والمصلحون والدعاة وقادة الفكر والرأي واستيقنوه، فكم ذلّل اليقين من صعاب وكم مكّن الصبر المؤمنين من تحقيق النصر والفوز في ظروف اليأس والقنوط.

المقالة السابعة

المشروع الإسلامي في سورة الحشر

بدأت السورة بنهاية المشروع الصهيوني ولم تذكر بالاسم لا اليهود ولا بني إسرائيل رغم أنهم أبطال السوء للواقعة لكنها نسبت الغدر والخيانة إلى الذين كفروا من أهل الكتاب، كأن انحرافهم العقدي جعلهم يخونون المرجع السماوي الذين ينتسبون إليه، وهي إذاً ليست قضية عرقية إثنية لكنها مسألة إفشال مخطط عدواني يستهدف الدين الإسلامي وأهله ورسالته، وابتداء سورة الحشر بوقائع غزوة بني قريظة فيه إيماء بضرورة التصدي للمشروع الصهيوني في كل زمان كما أن فيه لطيفة تفتح كوّة أمل وتفاؤل لأهل الإيمان هي تولّي الله تعالى لقضيتهم مباشرة ليس عبر المعية فحسب وإنما عبر الحضور الإلهي في المعركة، فقد نسب سبحانه وتعالى الفعل للصّ المسلم ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾، ونسب لذاته العليّة الفعل والنتيجة:

- ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾.
- ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾.

فإذا هزم المشروعُ الإسلامي المشروع الصهيوني برزت خصائصه ومقوماته:

أولا- العدالة الاجتماعية: هي أوّل بند في المشروع الحياتي التحرّري، تطمئن الناس على أرزاقهم عبر شبكة اجتماعية تسودها المساواة كممارسة سياسية تتجاوز الشعار إلى التطبيق المؤسسي: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾

وهذا ردٌّ واضح على الطرح العلماني المستوحَى من القراءة الكنسية للإسلام والذي يسحب المسائل الحياتية من الاهتمام الديني، وقد جيَّشت الدولة الإسلامية الراشدة الجيوش لمحاربة المتمنعين عن دفع الزكاة بعد وفاة الرسول ﷺ في سابقة تاريخية فريدة تحمل فيها الدولة السلاح من أجل استيفاء حقوق الطبقات المحرومة من الأثرياء المحتكرين للمال.

ثانيا - التداول الحضاري: أسّس قول الله تعالى ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾، قاعدة اقتصادية تضمن التوازن الاجتماعي عبر تداول المال بين أطراف متعددة في المجتمع ضمن دورات الانتاج والتوزيع والاستهلاك والادخار، حتى لا يبقى حكرا على طبقة مترفة قليلة العدد تتصرف في شبكة التداول المالي وتكتسب النفوذ السياسي والاجتماعي، وفي هذا إشارة جلية إلى التداول على

السلطة، فالاحتكار هنا باسم الحق الإلهي أو السلطة أو الثورة أو نحوها شرّ على المجتمع تماما كالاحتكار هناك بذريعة الملكية الخاصة.

ثالثا - الإحسان بعد العدل: تحقيق العدل مطلب عظيم هو من أركان الإسلام المدنية إلى جانب الحرية والشورى لكنه ليس المقصد الأسمى إذ تعلوه الأخلاق الإيمانية الكريمة التي لا تكفلها دساتير ولا قوانين ولا تشريعات وإنما تلتزم بها القلوب المفعمة بالإيمان والنفوس التي زكتها تربية السماء: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

ففي أزمنة الضائقة الاقتصادية قد يعجز العدل عن مواجهة حاجات الناس المتعدّدة والملحّة فيكمن الحلّ في الإيثار وتواري الذات خلف الاستجابة لمطالب المحرومين، وقد حدثت في تلك الربوع العربية معجزة اجتماعية فريدة تستعصي على الدراسات الانسانية في هذا الزمن المادي لأنها من صنع العقيدة الحيّة و الأخلاق الإيمانية، وهي التي نقلت يثرب إلى مصافّ المدينة حيث المدنيّة الحقّة والحضارة المتكاملة والرقيّ الانساني في ظلّ دين قيّم، هو وحده الدين القادر على استنساخ تلك التجربة مرّة أخرى كلّما أتيح للمشروع الاسلامي أن يُثبت وجوده في دنيا الناس.

رابعا - التواصل الجيلي: يؤسّس الاسلام لأفكار ومشاعر ومجتمعات لا انقطاع في خطّ سيرها، يعيش الناس حاضرا يقيمونه بجهودهم المتضافرة مهتدين بالماضي ودروسه وتجاربه الإيجابية والسلبية وما فيه من نجاحات وإخفاقات مع تفكير مستقبلي يخصّص مساحة

كبيرة للأجيال القادمة وحاجاتها الاقتصادية والاجتماعية ليحدث تواصل عاطفي تنسج خيوطه الأخوّة الإيمانية: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾، ولن تحتفظ الأجيال اللاحقة بذكر حسن لسلفها إلا إذا اقتصد هؤلاء في الإنفاق وتركوا لمن بعدهم موارد تكفل لهم العيش الكريم، وهذا ما جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُحجم عن توزيع الأراضي الزراعية المفتوحة في العراق على أبناء جيله كما كان متوقعًا لأنّ ذلك كان يعني حرمان مَن بعدهم من أوّل مصدر اقتصادي إذا استغنى به الجيل الحاضر وحده.

خامسا - عود على بدء: وتعود السورة قبل نهايتها إلى اليهود وتسلّط الضوء على علاقتهم بالمنافقين الذين يمثّلون في كلّ زمان ما يسمّى "الطابور الخامس" أي تلك الفئة من المواطنين الذين يرتمون في أحضان الأعداء الخارجيّين ويقومون من أجلهم بأعمال تخريبية في الداخل أكثرها نفسي كبثّ الإشاعات المغرضة والتضليل الإعلامي وتعبئة الجماهير ضدّ قضاياها ومصالحا بطرق خبيثة والانتصار للخصوم، كلّ ذلك من أجل المآرب المادية ولرفض قيم المجتمع افتتانا بالثقافة الوافدة، وهي ظاهرة متجدّدة نكاد نلمسها بأيدينا كلّما تقدّم المشروع الاسلامي في طريق الانجازات الكبيرة، وكما كان المنافقون عيونا وأسماعا لليهود في المدينة المنوّرة فهم بنفس الشكل اليوم، يتواعدون معهم سرّا وعلانية لاجتماع مصالحهم حول رفض

الاســـلام ووحدة الأمة وخيار المقاومة والجهاد، لكن ليس لهذا التحالف الشيطاني سوى وجود ظرفي تصيبه الهزيمة كلما أحيت الأمة عزماتها والتفت بقوّة حول مشروعها التحرّري والحضاري، ولا تكاد العين تخطيء التواجد اليهودي العلماني خلف مؤامرات إجهاض الثورات العربية، لكن هل لهذا المحور الشرّير من القوّة ما يدّعيه أو يوهم به؟ تصوّر سورة الحشر الحقيقة على نحو بيّن: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

كأنّ الايات الكريمة تصوّر واقعنا العربي الحالي وما يميّزه من تحالف بين العرب المتصهينين واليهود المعتدين وأوجه التناصح والتناصر بين الطرفين لتصفية قضايا الأمة الحرجة، ولعلّ الفرق الوحيد بين الأحداث الراهنة ووقائع غزوة بني قريظة يكمن في التعاون العلني بين الطرفين وعدم تحرّج "محور الاعتدال" العربي من إعلان تأييده للعدوان الصهيوني على الاسلام والقضية الفلسطينية بذريعة محاربة الارهاب، بل و يزايد على اليهود في تحميل الاسلاميّين مسؤولية شرور المنطقة والعمل على استئصالهم، والنفاق من أخطر معاول الهدم التي تنخر في جسد أيّة أمّة قوية، فكيف إذا كانت تعيش حالات الضعف والعجز وكان بيد

الطابور الخامس الجيشُ والإعلام والمال والتأييد الدولي؟ لكن هل هي نهاية الأمة إذًا ومشروعها ودورها؟

تضع الآيات اليد على الحقيقة المحورية حين تشير إلى أنّ القضية نفسية قبل كلّ شيء، وليست العبرة بما يتراءى من قوّة هائلة واستعداد جبّار في صفّ العدوّ، فوراء ذلك خوف متجذّر في النفوس من الاسلام والمسلمين حين يأخذون بأسباب المنعة والوجود الفعلي ويتجاوزون تهيّبهم وعوائقهم الوجدانية: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾، اعتمد اليهود في الماضي على تحصّنهم وإشرافهم على المعارك من بعيد، وهم يفعلون ذلك اليوم، وخشيتهم من المنازلة الميدانية لم تتغيّر، ثمّ هم يحملون في طيات تواجدهم غير الشرعي في فلسطين عوامل التفرّق والتقاطع بناء على أصولهم الإثنية، وكان من الممكن الولوج من هذه الثغرة لتشتيت جمعهم من خلال عمل إعلامي سياسي ممنهج لو كان لقضيانا من يحمل همّها ويتفانى في خدمتها من حكّام ومثقفين وصحفيّين، فإذا تحوّل كثير من هؤلاء إلى خدَمَة للمشروع الصهيوني وناصبوا المشروع الاسلامي العداء السافر المستحكم كانت المعادلة عرضة لخلل عضوي قاتل يصيب الأمة في عوامل حياتها وبقائها، ومع ذلك يمكن للشعوب الاعتماد على القلّة النزيهة من نُخبها لاستثمار الوهن النفسي عند الأعداء لقلب المعادلة وتحقيق الأهداف

المبتغاة، مع العلم أن الوهن قد انتقل في المدّة الأخيرة إلى الصفّ العربي الاسلامي فأنتج المهرولين والمطبّعين ودعاة استئصال "الارهاب" أي المشروع الاسلامي الذي يطلقون عليه "الاسلام السياسي" وهم يقصدون الدين الاسلامي ذاته، وهذا شأن المنافقين دائما: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وقد تغلّب الرعيل الأوّل على أعداء الخارج وفضح أعداء الداخل وقضى على تأثيرهم، وهذا الذي سيحدث على أيدي المؤمنين المستمسكين بحقّهم ومشروعهم الواثقين في وعد ربّهم.

سادسا- مرجعية وربانية: يقيم الاسلام التوازن الايجابي بين الربانية والإنسانية لإقامة مشروع حضاري يمتزج فيه الدنيوي بالأخروي والمادي بالروحي والسياسي بالأخلاقي، لذلك اختتمت السورة بلفت الانتباه إلى مرجعية القرآن الكريم، دستور الدنيا والآخرة والمادة والروح والسياسة والأخلاق، هو موجّه الانسان والأمة لكلّ خير عاجل وآجل، ومنزله سبحانه وتعالى هو المتفرّد بصفات الجمال والجلال والكمال التي حوى منها آخر السورة ما لم يجتمع في غيرها، أسماءٌ حسنى وصفاتٌ عليا تصحب الانسان في محراب الصلاة وساحات النشاط الانساني للدعوة إلى الله وإقامة العدل في أرضه وتسيير شؤون خلقه بموازين القسط، والقرآن مرجع شامل متكامل للحياة بجميع شُعبها ومجالاتها تنتفع منه كلُّ مقاربة واعية تُحسن التفكير والتنزيل المبصر، والله تعالى له الخلق والأمر في البدء والنهاية، يُجري مشيئته وفق

سنن ثابتة ونواميس ماضية، يكون حملة المشروع الاسلامي أقرب إلى التوفيق والإنجاز كلّما وعوها وفقهوها في خضمّ المعترك السياسي والمجتمعي والحضاري واحتكوا إليها بمزيج من العواطف الايمانية الدافقة والنظر العقلي الصارم، بها ينتصرون لا محالة على كلّ معتدٍ أثيم وتكون لهم الغلبة ويتمّ لهم التمكين.

المقالة الثامنة

الفتح المبين

أشرنا في المقالة السابقة إلى صلح الحديبية بما يقتضي المقام ونعود إليه كحدث بارز في مسار الدعوة الاسلامية وواقعة فريدة لا يُستغنى عمّا فيها من عِبر ودروس للدعاة والمصلحين وعامة المؤمنين.

ففي السنة السادسة للهجرة قصد الرسول ﷺ ومعه نحو ألف وأربعمائة من الصحابة مكة المكرمة في حملة سلمية دينية خالصة، القصد منها أداء شعائر العمرة كما كانت تفعل العرب، غير أن قريشا حالت دون ذلك، ودخلت في مفاوضات مع المسلمين أسفرت عن إبرام معاهدة سلام مؤقتة مدّتها عشر سنوات، تعرف باسم صلح الحديبية وهو المكان الذي تمّ فيه الاتفاق بين الطرفين.

لم يدخل المسلمون مكة المكرمة للعمرة كما كانوا يأملون، وتضمّنت المعاهدة بنودا هي -في ظاهرها- في غاية الإجحاف بالنسبة للطرف الإسلامي، فأحاط ذلك الصحابة بجوّ من الكآبة والمرارة، وعندما قفلوا راجعين إلى المدينة المنوّرة نزلت سورة "الفتح"، كان مطلعها أمرا عجبا في حينها، فقد سمع الصحابة آيتين تقولان:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ ﴾ سورة الفتح 1-3.

فالله تعالى يسمي صلح الحديبية فتحا، بل فتحا مبينا، ويعد الرسول ﷺ بنصر عزيز، وبين الفتح والنصر مغفرة سابغة للذنوب وإتمام للنعمة وهداية للهدي الأكمل.

لماذا هو فتح بل "فتح مبين" أي واضح المعالم جليّ المعاني؟ هذه الدقة في البيان الإلهي المعجز تشير إلى أوّل ثغرة أحدثها المسلمون في الطوق المضروب عليهم من قبل قريش ومن والاها من القبائل العربية، فقبل وقت وجيز من هذا الصلح كان المسلمون محاصرين في المدينة المنوّرة من طرف الأحزاب، يخاف الواحد منهم أن يخرج لقضاء حاجته، وها هم اليوم كيان تعترف به قريش وتتفاوض معه وتبرم معه معاهدة... وهذا من معاني الفتح.

وهذا التراجع القرشي عن الصلف والأحادية ستتحدّث به العرب فيكبر شأن الإسلام والمسلمين في أعينهم، و تكمن أهمّ مدلولات الفتح -في تقديرنا- في الهدنة المتّفق عليها وسكوت السلاح واستتباب الأمن في الجزيرة العربية، فقد أتاح ذلك للدعوة أن تنطلق فتخاطب العقول وتلامس القلوب وتعزّز صف الإيمان، وأيّ فتح أعظم من زوال الخوف والتهديد وإشاعة الحرية وإعطاء الفرصة للحوار والنقاش؟ إنّه بالفعل "فتح مبين" لأن المناخ الذي أنشأه الصلح هو أنسب شيء للدعوة الإسلامية التي تعتمد الحجة والإقناع لتفتح القلوب قبل الأرض، وقد ذكر المؤرخون أن عدد من دخلوا الإسلام في مدة عامين التي سرى فيها مفعول الصلح كان أكبر من

إجمالي من اعتنقوه منذ البعثة النبوية... لقد أحدثت "الحديبية" ثغرة واضحة في الجدار فأبصر الناس النور الوضيء وأقبلوا عليه طوعا بغير إكراه مهما كان.

وكان من بركات الصلح أن أسلم اثنان من أعمدة قريش هما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وحسن إسلامهما، وكان ذلك مددا ربانيا قويا لدين الله تعالى وللصف الإسلامي، وكان لهما بعد ذلك من العطاء في سبيل الله تعالى ما لا يخفى على أحد.

ومن معاني هذا الفتح أيضا تفرّغ الرسول ﷺ للجبهة الداخلية التي طالما لغّمها اليهود بالدسائس وأنواع التآمر والخيانة، كان آخرها تحالفهم مع الأحزاب -العدوّ الخارجي- رغم أنهم مواطنون بأتمّ معنى الكلمة بموجب وثيقة المدينة المنورة، فقد أجلاهم النبي ﷺ من خيبر، فدرأ بذلك خطرهم ووضع حدّا لعدوانيتهم المتواصلة، وقد فتّ هذا الإجراء النبوي الحكيم في عضد المنافقين -حلفاء اليهود التقليديين- فخفت صوتهم في المدينة ونضاءل شأنهم.

ومن معاني هذا الفتح أن صار للمسلمين سرايا إلى مناطق بعيدة من الجزيرة كاليمن ونجد والبلقاء، وأصبح الرسول ﷺ يستقبل وفود العرب من مختلف أنحاء الجزيرة، وهذا ما لم يكن متيسّرا قبل الحديبية.

فهو إذن فتح حقيقي باهر ساقه الله للمؤمنين بين يدي النصر النهائي المرتقب، لهذا تكرّر لفظه ثلاث مرّات في نفس السورة:

- ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾

- ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾

- ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝٢٧﴾

ماذا نتعلّم من هذا "الفتح" الذي افتتح السورة وتوسّطها وورد في نهايتها؟ إنّه محمّل بمنهج تربوي كفيل بإرشاد الدعاة والعاملين للإسلام إلى أفضل طرق الدعوة بانتهاج فقه العافية وبسط أدبياته ومعانيه ونشره على أوسع نطاق ممكن لتطرق الحجّة البالغة الآذان الموصدة وتقرع أبواب القلوب شرقا وغربا، تناقش وتحاور وتسوق الدلائل وتحبّب للناس دين الله الحقّ، وهذا يحتاج إلى رسوخ كرسوخ الصحابة رضي الله عنهم وفهم كفهمهم الواثق الدقيق، والمسلمون اليوم -خاصّة- في أمسّ الحاجة إلى منهج "الفتح المبين" وإحداث نقلة نوعية تشيع الحرية وتفتح للدعوة آفاقا محلية وعالمية رحبة تبلغ فيها حقائق الإسلام ما بلغ الليل والنهار عبر الوسائل التقنية الحديثة التي تفتح للدعوة أبواب العقول والبيوت والمنتديات والمواقع والجرائد والفضائيات وغيرها.

كلّ هذا ليعلم كل ذي عقل أن مهمة المسلمين ليست قتل الآخرين ولا تعريض أنفسهم للقتل من دون لزوم إنما هي بيان محاسن الإسلام

الروحية المدنية والمساهمة بها في إنقاذ البشرية من الضلال ومن المخاطر المحدقة بها لبعدها عن قيم الحق والخير والعدل والمساواة، وليعلم كل ذي عقل أيضا أن الإسلام ليس انقلابا سياسيا أو عسكريا بل هو انقلاب عقلي وتربية طويلة تفجّر طاقات البشر الخيّرة وتضع الضوابط الأخلاقية الضرورية لمنع الانفلات والاعتداء والطغيان.

لا يخفى على أحد أن المسلمين اليوم ضحية عدوان متعدّد الأوجه تتفنّن فيه الأنظمة السياسية والإعلامية الغربية لهضم حقوقهم وتشويه صورتهم ورهن مستقبلهم، فقط لأنهم يحرصون على تميّزهم الديني ويرفضون الانصهار في بوتقة العولمة المادية الطاغية، لكن لا حيلة لهؤلاء المسلمين سوى اعتماد المنهج الدعوي الذي يمكّنهم من تبليغ صوت الإسلام وصورته الحقيقية الناصعة المفعمة بحبّ الخير للإنسانية قاطبة والرغبة في التعاون من أجل معاني الحقّ والأخلاق والرقيّ المادي والسموّ الروحي، وهذا هو الفتح المبين الذي نرجو أن يتكرّر بشكل معاصر يستصحب شحنات الفتح الأول.

إن الفتح ضدّ الإغلاق، فكأنّه فرصة سانحة ثمينة لانطلاق الناس والعقول والكفاءات من أغلالها إلى رحابة السياحة الفكرية والتفاعل الإيجابي، أمّا النصر فضد الهزيمة، ولن يتحقق إلا بعد الفتح، تماما كما أشار مطلع سورة "الفتح".

إنها منهجية واضحة لن تخطئ نتائجها بإذن الله تعالى، ففتح مكّة وتحويلها من عاصمة للشرك إلى عاصمة للتوحيد هو النصر والفتح الأكبر ولم يحصل إلاّ بعد أن آتى فتح الحديبية أكله.

المقالة التاسعة

خصال الروم وسنن التمكين

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ.........﴾سورة الروم 1 – 4.

رغم هزيمتهم النكراء أمام إمبراطورية آسيا أعلن القرآن الكريم أن أبناء الإمبراطورية الأوربية سيستردون المبادرة ويحققون نصرا حاسما على أعدائهم في أقل من عشرة أعوام، وقد حدث ذلك. ويهمنا أن نسأل عن سرّ هذا التحوّل في ميزان القوى والعوامل التي يعود إليها لنعي الدرس ونقتفي الأثر، ونحن لا نشكو خسارة معركة عسكرية ولا حتى حربا إنما وجودا حضاريا، ولعل هذا التساؤل قد راود الصحابة عليهم الرضوان، فقد روى الإمام مسلم أن المستورد القرشي ذكر في حضرة عمرو بن العاص أنه سمع الرسول ﷺ يقول "تقوم الساعة والروم أكثر الناس" فاستوثقه عمرو فأكّد المستورد سماعه له، عند ذلك قال عمرو وهو داهية خبير بمعادن الناس وأخلاق الشعوب: "إن فيهم لخصالا أربعا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة وأوشكهم كرة بعد فرة وخيرُهم لمسكين ويتيم ضعيف، وخامسة حسنة: وأمنعهم من ظلم الملوك"...

لقد أذن الله للروم بالانتصار والتمكين لأن فيهم من الخصائص والصفات ما ينسجم وسنن النصر والتمكين، ولأمر ما فإن الحضارة

الفارسية انهارت أمام الإسلام بينما بقيت الحضارة الغربية قائمة إلى اليوم في امتدادها الأوربي والأمريكي، وها نحن نرى فيهم بأنفسنا تلك الخصال التي ذكرها عمرو.

تصيب مجتمعاتِهم الفتنُ فلا تطيش عقولهم بل يواجهونها بالحكمة والحلم حتى تنقشع، ونموذج ذلك أحداث ماي 1968 التي عصفت بفرنسا والتي كانت أزمة حضارة كما قال المثقف الكبير وزير الثقافة الفرنسي أندري مالرو، وكانت تنذر بسقوط الدولة ذاتها في مواجهة غضب قطاعات الشعب كلها، لكن تجاوزتها فرنسا واستفادت منها وجعلت منها منعرجا لتقوية البلاد وثوابتها ومؤسساتها.

هنا يبدو حِلمُهم في أزمنة الفتن وتماسكهم ورباطة جأشهم.

وإذا داهمتهم مصيبة مزلزلة -كالأزمات المالية العالمية المزلزلة ابتداء من أزمة 1929 الخانقة- يبادرون إلى الإفاقة من هولها واستجماع قواهم يتنادى قادة والرأي العام والفكر ورجال السياسة والاقتصاد وغيرهم فيحسنون التشخيص ويضعون الخطط المناسبة ويحوّلون ما كان يبدو مستحيلا إلى ممكن، وهاهم مرّوا في أوربا بحربين كونيتين مدمرتين أزهقتا ملايين البشر وخرّبتا القارة القديمة تدميرا كبيرا، لكن سرعان ما أفاقوا ورجعوا إلى التعمير فطووا صفحة الخراب وبلغوا بسرعة مذهلة قمة التطور الاقتصادي والعلمي والتقني، ليس هذا فحسب بل حتى في المجال النفسي الأدبي استطاعوا بسرعة مذهلة تجاوز آثار المصيبة العظمى التي ألمت بهم

فرجعوا إلى الحياة والاستمتاع بها -وفق مقاييسهم هم- وتآلفت الشعوب والدول التي اقتتلت بأبشع صورة منذ سنين قليلة.

إنهم فعلا أسرع الناس إفاقة بعد مصيبة.

ثم إنهم فعلا أوشك الناس كرّة بعد فرّة، فهم يحسنون فنّ الانهزام الظاهري والتراجع التكتيكي ريثما يبدّدون الشكوك أو يعدّون ما استطاعوا من قوة فإذا بهم يقتحمون ميدان المنافسة العالمية اقتصاديا وعسكريا وتكنولوجيا، ولعل ألمانيا ما بعد الحرب الثانية أحسن دليل على ذلك، فقد توارت بعد الحرب العالمية الثانية عن النظار وتركت مجال البروز لسنوات حتى ظنّها الجاهلون قد انسحبت نهائيا من السباق العالمي لكنها استجمعت قواها واعتنت بوضع الأسس المتينة إنسانيا وعلميا وصناعيا وأحكمت القواعد وما هي إلا سنوات حتى عادت إلى الحضور العالمي بقوة أدهشت الملاحظين في حين نجد دولا أخرى -من العالم العربي أساسا- لا تكاد تنزل بها نازلة سياسية أو مالية أو اجتماعية حتى تذهب بسلامتها ومؤسساتها وتماسك مجتمعها لأن الغالب عليها البلادة والتأخر في الادراك والنهوض.

ولا يستطيع منصف أن ينكر تبوأ الأوربيين والأمريكيين -وهؤلاء من أصول أوربية أي رومية- مكان الصدارة في رعاية الشؤون الاجتماعية في بلدانهم حتى إن المساكين واليتامى والضعفاء يحظون بالإحاطة المادية والمعنوية من مؤسسات الدولة والمجتمع المدني بشكل يغبطهم عليه الأغنياء عندنا، أمرُ اليتامى والمساكين والضعفاء هناك

ليس متروكا للمبادرات الفردية والصدقات القليلة إنما تتولاه مؤسسات الدولة من جهة والمنظمات غير الحكومية من جهة أخرى في إطار تصوّر علمي كلي شامل للعمل الخيري والرعاية الاجتماعية بحيث يتكامل الطرفان الحكومي والتطوعي في توفير أسباب الحياة الكريمة والرعاية اللازمة للمعوزين والمرضى والطبقات الضعيفة.

ويجب ان نذكر أن رعاية الضعفاء عند الأوربيين تجاوزت الحيّز القومي والمحلي لتصبح نشاطا لا يعير اعتبارا للمواطنة أو الانتماء الجغرافي والثقافي، كم استفاد منه والوافدون من بلاد العالم الثالث، وليس صحيحا ما يروّجه بعضنا حين يربط العمل الخيري بالتنصير، فهذا موجود لكنه جزء فقط من ذلك النشاط.

وأما الخصلة الخامسة فتكاد تكون هي الحاسمة إذ أنهم استطاعوا عبر أجيال من الرجال وأحقاب من النضال والمواجهة والتدافع المدعوم بالعمل الفكري المتواصل إرساء دعائم متينة لنظام حكم خلّصهم من شبح الاستبداد ودكتاتورية الحكام وهم اليوم في بلادهم أمنعُهم من ظلم الحكام وأبعدُهم عن احتمال عودة الحُكم الفردي والنظام الشمولي، حتى صار النظام الملكي عندهم عَلما على العدل فضلا عن النظام الجمهوري، وهل تستقيم حياة في ظل الاستبداد السياسي؟ وهل قفز الغرب قفزته النوعية الهائلة إلا بعد أن تخلّص من دكتاتورية الملكية المتحالفة مع الكنيسة؟

إن في قـول الله تعـالى ﴿وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝﴾ إشـارة ليس فقط إلى التفوق عسكري ظرفي ولكن إلى سنن إنسانية ماضية يشيّد على أساسها التفوق الحضاري، وهي غلبة الحكمة في المجتمع وعدم الاستسلام للمصائب ومعاودة المحاولة في حال الفشل والتضامن الاجتماعي على أن تتصدرها جميعا الخصلة الحاسمة المتمثلة في رفض الاستبداد وإقامة حكم الشعب والعدل ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝﴾...فهل نعي الدرس أم نكتفي بتوعد الحضارة الغربية بالزوال لنبرّر عجزنا نحن عن إقامة الحضارة البديلة؟ ومن مصائبنا الكبرى في زماننا هذه ان ثقافة دينية مغشوشة تؤصّل للرفض القطعي للغرب لأنه كافر وترف كل ما يأتي منه في المجال الفكري والإنساني بزعم انها كفريات يجب مخالفتها، فصار حراس الخطأ يشيعون أدبيات الاستسلام للدكتاتورية لأن الديمقراطية كفر!!! ويرفضون معاني الحرية وحقوق الانسان والعمل السياسي لنفس السبب، وهذا مردود من جهتين: الأولى ان كل وسيلة أثبتت نفعها في تسيير شؤون الخلق نأخذ بها لأنها غير توقيفية ولا يعقل إطلاقا ان تكون توقيفية، والثانية أن الخصال التي ذكرها عمرو رضي الله عنه هي في حقيقة الأمر بضاعتنا نريد ردّها إلينا، ومن تتبع روائع حضارتنا وجد بيّنات ذلك بسهولة في الحياة السياسية والاجتماعية الرسمية والشعبية سواء.

المقالة العاشرة

مقومات الخلافة في الأرض

يتضح من الخطاب القرآني أنّ الخليفة الذي جعله الله في الأرض ليس هو آدم الشخص إنما آدم الجنس اي الإنسان، وأنّ المهمّة ممتدة في هذا الإنسان وباقية ما بقيت الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ سورة البقرة 30.

هذه الخلافة هي الأمانة الكبرى لأنها تعني تسيير شؤون الأرض بهدي السماء من طرف إنسان مؤمن بها مزوّد بأدواتها، وهي تستصحب مهمّتين متلازمتين في التصوّر الإسلامي، هما العبادة والعمارة:

- ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ سورة الذاريات 56.

- ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ سورة هود 61.

فالصورة المكتملة هي إنسان استخلفه الله في الأرض أي كلّفه بالعيش فيها على أساس وبهدي رؤية ربانية بيّنت قواعد وضوابط السعادة الدنيوية والأخروية، تتكامل مع خضوع هذا الإنسان لفرض عبادة الله تعالى ووجوب بناء الحياة الدنيا وتيسير مرافقها واستخراج سنن الكون وخيراته ليستمتع بها البشر ويتواصل بها البقاء إلى ما شاء الله.

ولا يختلف عاقلان في أنّ الله تعالى -وقد أوكل إلى الإنسان مهمّة الخلافة التي تستبطن العبادة والعمارة- قد زوّده بكلّ لوازم أداء المهمّة

على الوجه الأكمل، فأمدّه بالقدرات العقلية والروحية والبدنية الكفيلة بتوفيقه في وظائفه، ولولا هذه القدرات الممنوحة لكان تكليف الإنسان بالمهمّة الضخمة تعجيزا تتنزّه عنه الحكمة الإلهية:

- ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ سورة هود 78.

- ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ سورة الإسراء 36.

يشير السمع إلى التعلّم بواسطة التلقّي والتلقين، ويشير البصر إلى النظر العلمي في الآفاق والنفس واستكشاف كنه الأشياء المادية والمعنوية، أمّا الفؤاد فهو العقل أي محلّ الادراك والتدبّر والتمحيص وفهم الوحي والسنن والواقع الإنساني المحيط.

لكنّ ثقافة عصور التخلّف بدل أن تركّز على رفع إنسانية الخليفة إلى أعلى الدرجات ركّزت على صفات العجز والضعف والفناء، وتوالى ذلك أحقابا حتى أصبح المسلمون يرون أنّ هذه هي صفات الإنسان الأصلية والأبدية، ومنشأ الخطأ هو مقارنة الإنسان بالله تعالى بحيث أدّى الإقرار بصفات الكمال للخالق سبحانه وتعالى إلى نفيها نهائيا عن المخلوق، وهذه مغالطة واضحة لأنّ المقارنة في حدّ ذاتها لا محلّ لها عقديا وواقعيا، وكلّ ما في الأمر أنّ الإنسان محكوم بقاعدة النسبية أي أنّه بكلّ تأكيد عاجز مقارنة مع قدرة الله عزّ وجلّ، وضعيف أمام قوّة

الإنسان تعجيزا أو عبثا، أمّا الصواب المتسق مع محكمات الإسلام فهو إثبات الفعل الإنساني الذي يصبّ في الفعل الإلهي بعيدا عن الرؤية العلمانية التي تنكر أحد الفعلين، و النظرة الجبرية التي تنكر الآخر، وقد أنتج هذا الخلل في المعادلة استهتارا بالقيمة الدينية من جانب وإنكارا للإرادة الإنسانية الفاعلة من جانب ثان، فحدث التخبّط النظري والعملي في حياتنا وكان من أهمّ أسباب رقّة الدين التي أصابت مساحة واسعة من المسلمين، كما كان وراء التخلّف المريع على المستوى الدنيوي في مجالات النبوغ العلمي والاستكشاف والاختراع والتفوّق المعرفي على كافّة الأصعدة، ورغم المراجعات الفكرية والتربوية على مدى عقود من الزمن قامت بها الأوسط العلمية والدعوية فإننا ما زلنا في حاجة إلى مزيد من التركيز على خصيصة الإنسانية التي غمطها كثير من المسلمين حقّها لإفراطهم في إثبات الربانية وحدها وكأن إحدى الخصيصتين لا تثبت إلاّ بنفي الأخرى، استنادا إلى تصوّر كنسي تسلّل إلى الرؤية الإسلامية الذي تجمع بين قبضة الطين ونفخة الروح.

إنّ الخلافة التيّ سجدت لها الملائكة تحمل كل معاني القوّة والإبداع والفعل، والله تعالى لم يخلق الإنسان ليقهره بالعجز ولكن ليرتقي به إلى مصادر القوّة والقدرة والعلم، ومثبّطات الهمّة الحضارية لا وجود لها في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لكنّها نبتت مع

الفكر الجبري وترعرعت مع الواقع المتردّي الذي رأينا فيه غير المسلمين ينسجمون مع مقتضيات الخلافة أكثر من المسلمين.

والعودة البصيرة الواعية إلى منطلقات الرؤية الإسلامية ستتيح من غير شكّ التحرّر من الفكر المبنيّ على تصوّر عبورية الحياة الدنيا وتعجيز الفعل البشري وتهميشه، هذا الطرح الذي يعتبر التفاعل مع الكون عبثا ويجعل من الخلافة في الأرض فكرة مجرّدة باهتة، ومن العبادة أشكالا وطقوسا، ومن العمارة حلما ورديا أو فعلا ذهنيا، وهو غافل عن أنّ قول الله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يقتضي أن يحقّق المسلم -وليس داود عليه السلام وحده- كمالاته ويفجّر قواه بالوعي والممارسة، وهذه هي العبادة الحقّ. ولا تأخذ هذه الفكرة حقّها كاملا إلاّ إذا تحرّك المسلمون بها عمليا وفق الأصول الذهبية مثل الأصل في الأشياء الحلّ وفي الأفعال الإباحة وتحرّروا من القيود المفتعلة غير المؤصّلة شرعا التي أورثتهم التحفّظ والتهيّب المفرطين والقناعة بالتحرّك الرمزي الرديء.

نقول هذا لأن مهمّة الخلافة في الأرض انقسمت شطرين غير متكاملين ولا منسجمين بين مسلمين يؤدّون واجب العبادة في شكل شعائر دينية لكنّ حضورهم في عالم الإبداع والاختراع والتسخير وحسن التسيير يكاد يكون منعدما منذ قرون، وبين غير مسلمين يعمرون الأرض ويُحكمون السيطرة عليها ويتفنّنون في علومها ومعارفها وشؤونها لكن بعيدا عن الدين والأخلاق والقيم الروحية

لزعمهم أنّ العلم -بمفهومه الوضعي- يمتلك جميع المفاتيح ويجيب عن كلّ الأسئلة، فلا حاجة له إلى وحي أو نبيّ أو ضوابط إلاّ ما يرتضيه هو ذاتيًا، ولا شكّ أنّ هذه الثنائية فتنة كبيرة للطرفين، فعامّة المسلمين استمرؤوا الوضع واعتقدوا أنّ التزامهم بعبادة الله بالفرائض والنوافل أسقط عنهم تكاليف عمارة الأرض، بل بالغ بعضهم فقرّر أنّ الله سخّرنا لعبادته وسخّر لنا الغربيين يبدعون في الميادين الحياتية لنعيش نحن مستريحين من هذه الأعباء!!! وهذا رأي يكفي إيراده لبيان فساده، أمّا غير المسلمين فقد أغرتهم قوّتهم المادية وتمكينهم في الأرض بالاستغناء عن الله تعالى وهدي السماء، ولن تحطّ السعادة رحالها في دنيا الناس إلاّ عندما يلتئم شطرا المعادلة ويشتغل المسلمون بالعمارة اشتغالهم بالعبادة لأنّ تلك هي الخلافة التي شرّفهم الله بها.

المقالة الحادية عشرة

أبعاد نفسية واجتماعية من قصة طالوت

مضت سنة الله في بني إسرائيل الذين استساغوا احتلال أرضهم واستثقلوا الجهاد لتحريرها رغم ندب موسى عليه السلام لهم للقتال فعوقبوا بالتيه وهاموا على وجوههم في الصحاري والقفار ردحًا من الزمن: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ..... ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ۝ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝﴾ سورة المائدة 20- 26.

وبعد أحقاب مضت وأجيال سئمت التيه بدت من بني اسرائيل رغبة في حمل السلاح لإخراج العدوّ المحتلّ لبلادهم وكلّموا نبيّ زمانهم في ذلك ليتولّى توجيههم بما يناسب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ

إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ سورة البقرة 246 (وتستمرّ القصة إلى غاية الآية 252).

من هنا تبدأ سلسلة من المواقف، كلّها في حاجة إلى وقفات إيمانية وعلمية لاستخراج الدروس والعبَر المُجلّية لكوَامن النفوس وسنن الاجتماع، والهادية للمؤمنين في استحضار حقائق الوحي من أجل تجلية معالم الصراع مع النفس ثم مع الخصوم.

النبي يحذر من فورة الحماس لم يتسرّع النبيّ في إجابة قومه إلى القتال، لأن معرفته بهم -وهم شعب غليظ الرقبة عبر الأجيال المختلفة- وحذّرهم من نزوات العواطف الفائرة والعزائم الظرفية: ﴿قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ﴾، لكنّهم أبدوا استمساكا بقرار الحرب و ساقوا حجَجًا تُظهر العزيمة وتدحض التردّد: قالوا وما لنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا

أمارات الهزيمة النفسية لمّا رأى نبيُّهم هذا الإصرار منهم على القتال لتحرير أرضهم أعلن التعبئة العامة، فكانت الصدمة الأولى من بوادر علامات الانهزام قبل أن تبدأ المعركة، إنها بوادر الهزيمة النفسية التي لن تقود إلاّ إلى مزيد من التراجع والإخفاق أمام العدوّ: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾.

هكذا تبيّن أنّ اندفاعهم الأوّل كان مجرّد نزوة عابرة لم تصمد أمام الخطوات العملية، وما هذا سوى للخوَر الذي أصبح عندهم

خصيصة وخُلقًا، وذلك شرّ ما يُبتلى به إنسان، فإذا ابتُليت بـه أمّـة كانت الكارثة، لكن هناك قلّة بقيت على عهدها، غير أن علامات الهزيمة تبقى مصاحبة لها إلا دائرة ضيّقة من أصحاب المبادئ والتصميم يخوضون المطاف إلى نهايته.

خطوات متتالية للتراجع، بعد أن تراجعت الأغلبية عند الوهلة الأولى اعتمد نبيّ الزمان على البقية المثابرة: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، نحن هنا أمام عدّة مسائل يجب التوقّف عندها:

- لا بدّ للحشود المتأهّبة للقتال من قائد ينضوون تحت لوائه، وها هو قائد الجيش أمامهم، ومعه ميزة نادرة، إذ لم تعيّنه قيادة الأركان ولا الجماعة ولا حتى النبي، بل هو من اصطفاه الله تعالى، الله الذي يؤمن به بنو إسرائيل.

- كان ينبغي -والحالة هذه- أن تسارع الجموع المؤمنة إلى مبايعة طالوت والانصياع لأمر الله دون تردّد لأن ديدن المؤمنين أن يقابلوا أمر الله بالسمع الفوري والطاعة المطلقة: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ سورة البقرة 285، لكن موقف هؤلاء القوم لم يشذ عن موقف اليهود الدائم ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ سورة البقرة 93.

فأيّ إيمان هذا؟ وأيّة عقيدة هذه؟

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾
سورة الأحزاب 36

- لم يكتف القوم بعدم إنفاذ الأمر الرباني -وهذه وحدها قاصمة كبرى- بل شككوا في الحكمة الإلهية: ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾، يرون أن الاختيار الإلهي جانبه الصواب لأنّ منهم من هو أجدر بالقيادة من طالوت، كأنّ ذلك فات علمَ الله تعالى.

إنّ الإذعان لأمر الله ونهيه دليل الإيمان ومقتضاه الطبيعي، وقد أمضى إبراهيم عليه السلام ما رأى أنه أمر بذبح ابنه الصغير الوحيد، فأقدم على النحر بدون تردّد، وأسلم إسماعيل عليه السلام عنقه للسكين راضيا طائعا لّما علم أن ذلك أمر الله، ليقين الأب والابن أن أوامر الله كلّها حكمة ومصلحة وخير.

وإن تعجب فاعجب من "مسلمين" معاصرين يثورون غضبا إذا وُصفوا بالكفر، لكنّهم يرفضون أحكام الشريعة، وعلى رأسها تعدّد الزوجات وقسمة المرأة مع الذكر في الميراث ولباسها الشرعي والحدود أي العقوبات البدنية.

فهذه سنّة إسرائيلية قديمة، وزاد القدامى على المعاصرين بأنهم جادلوا النبيّ ذاته في الحكم الإلهي لأن النبي كان بين ظهرانيهم.

- ولا ينتهي العَجَب هنا، فقد أضافوا في جدالهم لنبيّهم ما يدلّ على الغباء والحمق أو على المماطلة حتى لا يخرجوا للقتال الذي كانوا قد انتدبوا أنفسهم له ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ ... أيّ منطق هذا؟ الجيش يحتاج إلى ضابط كبير منحنّك يقوده للنصر، ولهذا الضابط مواصفات بديهية، ليس منها الغنى على الإطلاق! فما دخل الثروة في قيادة الجيوش وخوض الحروب؟ أهو المقياس المادّي الذي درج عليه بنو إسرائيل من قديم مع قضية العجل مثلاً؟ الاعتبار عندهم للمال وليس للكفاءة ولا حتى للاصطفاء الرباني..

- يحاول النبيّ ردّهم إلى جادّة الصواب ومنطقة التفكير السليم: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾، ذكّرهم بأنّ الأمر فصلت فيه السماء التي يؤمنون بوحيها، ونبّههم إلى مؤهّلات القيادة ولخّصها -بالنسبة لقيادة المعارك الحربية- في المعرفة والقوة البدنية، وهذا ما لا يختلف حوله مؤمن ولا كافر، لأن العلم يتيح وضع الخُطط الناجحة بناء على قائمة من المعلومات والمعطيات، أما بسطة الجسم فكانت ضرورية آنذاك لأن الحروب كانت بدنية يتصارع فيها المتقاتلون بالقوة العضلية.

- ويبدو أن القوم لم يتحرّروا من التردّد والتلكؤ، فجاءهم مددٌ من السماء هو غاية في الغرابة: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾..

تتمثّل الغرابة في أمور، أوّلها أنّ السكينة أمر نفسي معنوي يتنزّل على القلوب ويغشى النفوس فيسوق إليها الطمأنينة والرضا، لكنّها هنا تتنزّل على التابوت أي الصندوق الخشبي، وكأنها تسخر من هؤلاء العُتاة الذين لم تجد فسحة في قلوبهم المغلقة لتتنزّل فيها، وثانيها أنهم كانوا في حاجة إلى تثبيت ليخوضوا الحرب، فما دخل آثار موسى وهارون في ذلك؟ إنه طغيان الجانب الحسّي عليهم وحبّهم للمجسّم، يذكّر بقصّة العجل (الذهب) وطلبهم رؤية الله جهرة (يؤمنون بالمحسوس) والمائدة المنزّلة ليأكلوا منها وتطمئن قلوبهم ويعلموا ان عيسى صادق!!!) وما تُنبت الأرض (يريدون نزول الطعام بطريقة خارقة بدل أن يعملوا ويزرعوا ويغرسوا)، وثالثها تدخّل الملائكة هنا ليس للقتال معهم ولكنها هي التي تحمل التابوت لعلّهم يتأكّدون من المعجزة الخارقة!!!

- **الابتلاء البسيط** تخلّف من تخلّف وسار من سار مع طالوت بعد الجدال والتردد ومحاولات الإقناع بخوض الجهاد، ورأى القائد أن يمتحن جنوده امتحانًا بسيطًا يختبر به قدرتهم على التحمّل وامتثال الأمر قبيل المعركة، والجهاد يحتاج دائما إلى عُدّة من تحمّل الصعاب ورصيد من القدرة على تجاوز شتّى أنواع الحرمان، فمنع الجُند من عبّ الماء من النهر الذي يعترضهم والاكتفاء بغرفة واحدة منه لمن غلبه العطش، لكنّ أغلبيتهم رسبت في هذا الامتحان السهل بالنسبة لمقاتلين سيواجهون الموت في ساحة الوغى: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ

بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، فخارت قواهم بمجرّد اجتياز المجرى المائي، وهو ما كان منتظرا، فكيف يتغلّب على عدوّه من لم يتغلب على شهوة نفسه؟ قال الله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾.

القلة النوعية ما مصير معركة بدأت بالاختلاف حول القائد وتتالت عليها التراجعات وكانت فيها الهزيمة النفسية سيّدة الموقف؟ إنه الانكسار المحقّق أمام العدوّ، لكنّ الله تعالى أمضى سنّة النوعية ولم يبال بالكثرة المنسحبة: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾.

عملت الغربلة عملها عبر مراحل عدّة فذهب الزبد وبقي النافع الذي يتحقّق على يديه النصر، وهو القلّة المؤمنة المتحلّية بالصبر على المكاره والضغوط المتنوّعة والعقبات الكأداء.

إنّها الطائفة المنصورة والفرقة الناجية التي أخذت بحظّ وافر من اليقين في الله والثقة بالنفس والثبات عند الامتحان، فعوّضت بنوعيتها الرفيعة عن قلّة عددها، وماذا فاتها إذا كان الواحد من أفرادها كألف أو مائة من أعدائها بفضل خصاله وأخلاقه وعطائه؟ وما فائدة كثرة غثائية ترسب في أول اختبار وتتراجع عند أول تحدّ.

تمتهن الجدل ولا تقوى على التضحية والعمل؟ وما زالت دروس بدر و حنين ماثلة للناس تدحض أي مماحكة أو مجادلة بالباطل.

الدعاء الميداني بقيت القلّة المؤمنة مع جالوت، عازمة على خوض معركة التحرير الكبرى وهي مدركةٌ لجوانب الضعف فيها كما تتراءى للنظر الدنيوي السطحي، من قلّة عدد و وهن يسري في الأغلبية يُفضي إلى الانهزام، فلاقت عدوّها في الميدان بمعنويات مرتفعة، يكلأها التوكل على الله والاستمداد من قدرته والاستعانة بأرصدة من الصبر تنساب من السماء: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾... إنه الدعاء الميداني حيث سكتت الألسنة ونطقت الأسنّة ويوشك أن تخطب السيوف على منابر الرقاب، هنا جأر الجيش المؤمن بالدعاء وهو قاب قوسين أو أدنى من الموت، يلوذ بربّ العالمين ويتذرّع بإيمانه مقابل كفر الغزاة، وشتّان بين الدعاء في ميدان المعركة وبين دعاء المسترخي على أريكته أو المجلجل فوق أعواد المنابر، هي نفس الكلمات لكنه ليس نفس العمق، وقد تعلمنا ذلك غضًا طريًا من رسول الله ﷺ قبيل غزوة بدر، وأوجه الشبه بينها وبين قصّة طالوت كثيرة.

النصر نصر الله مضت سنة الله وتحقّق وعده، وانهزم الباطل وارتفعت راية الحق وقرّت أعين المؤمنين بنصر الله: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾... لا مجال لتضخيم الذات ولا الزهوّ بالغلبة، فالنصر

من الله تعالى، على الصفّ المؤمن ألا يغفل عن هذه الحقيقة في غمرة الكسب و التمكين:

- ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ سورة الأنفال 17

- ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ سورة آل عمران 126

- ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ سورة الأنفال 10

- ألم يدخل الرسول ﷺ مكة عنوةً، منتصرا فاتحا لكنه دخلها متواضعا متذلّلا بين يدي الله تعالى لا ينسب لنفسه فضلا؟ هذه هي حقيقة الأمر وهذا هو الأدب العالي مع الله سبحانه وتعالى.

بروز داود عليه السلام تُختم القصّة ببروز جندي من عرض الجيش منّ الله عليه بقتل رأس الكفر والظلم جالوت، سيكون له شأن مع قومه، نبيّ وملك، يجمع بين الأيمان والقوة والعدل والتمكين العريض، أهّله بلاؤه

الحسن في المعركة لتولي القيادة ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾.

المقالة الثانية عشرة

فقه التمكين من قصة داود

ورد ذكر داود عليه السلام في القرآن الكريم كنموذج لمن جمع بين التمكين في الأرض والارتباط الوثيق بالسماء، فقد كان ملكًا يسوس شؤون مجتمعه، وهو في ذات الوقت نبيّ يتلقى الوحي من ربّه، وإذا كان منصب النبوّة محض عطاء من الله لا مطمع لأحد فيه بعد محمد ﷺ فإنّ داود عليه السلام قدوة حسنة للحكّام المسلمين في تسيير أمور الدنيا بالدين المنزّل والأخلاق الرفيعة والسيرة الحسنة.

كيف وصل داود إلى سدة الحكم؟ لا يشير لفظ 'الملك' في القرآن الكريم بالضرورة إلى نظام الحكم الوراثي بل إلى القيادة العليا في البلاد، وداود لم يرث السلطة عن والده وإنما بفضل مؤهّلاته التي ظهرت للعيان في معركة بني إسرائيل ضد جيش جالوت، فقد كان داود جنديا في الجيش الإسرائيلي وهو الذي شرّفه الله بقتل قائد الأعداء: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ سورة البقرة 251.

فلا يُستبعد أن يكون قد كبُر في أعين قومه بعد إجهازه على جالوت في ساحة القتال، فاختاروه بعد ذلك -وبتوفيق من الله تعالى- حاكمًا عليهم، يتمتّع بالحكمة والمعرفة الواسعة.

ولا يُعقل أن يستند أنبياء الله إلى المُلك العضوض أي الحُكم الدكتاتوري الذي يحصر السلطة المطلقة في يد أسرة واحدة، يتداولُها الأبناء أو الإخوة الواحد بعد الآخر كأنها غنيمة لا يتنازلون عنها أو ملكية خاصّة لا يُشركون فيها غيرَهم بينما تُغيَّب الأمة برمّتها. ويكون ذلك أشدّ إيلامًا عندما يُسوّغون الحكم الوراثي الاستبدادي بمسوّغات دينية متهافتة لا يقرّها شرع محكم ولا فطرة سليمة ولا عقل راجح.

نبيّ عامل ومَلكٌ عابد: كثيرا ما يسود عدم الانسجام بين دائرة السلطة ودائرة العبادة حتى كأنهما أقرب إلى التناقض أو التوازي الهندسي، فرجال السياسة منهمكون في شؤونها إلى درجة الغفلة عن الواجبات الدينية لعدم توفّر الوقت، وأرباب العبادة يتبرّمون من الحُكم خوفًا على آخرتهم، ولم يقدر على التوفيق بين الدائرتين سوى أولي العزم من الراسخين في العلم والإيمان، وعلى رأسهم الأنبياء أمثال رسول الله ﷺ وداود عليه السلام.

فهذا النبيّ الكريم لم تشغله تكاليف الحكم والقضاء بين الناس في النزاعات عن أداء أنواع العبادات والاستغراق في واجبات العبودية لله تعالى، إلى درجة أن الرسول ﷺ اعتبر **أفضل الصيام صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يوماً** رواه البخاري ومسلم.

أمّا الذكر والتضرّع والتبتّل فيتجلّى في تغنّيه بالزبور المنزّل عليه -وهو مواعظ وأذكار- في الخلوات والجلوات، وقد أمدّه الله بصوت

رخيم أصبح مضرب الأمثال في الحُسن، وأمر الله الجبال والطيور أن تتجاوب مع تسبيحه وترتيله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ سورة الأنبياء 79.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ﴾ سورة سبأ 10.

ومن النافلة القول إنّ ترجيع الجبال والطيور تفاعل حقيقي مُعجز وليس رجع الصدى الذي لا علاقة للعصافير به، ولو كان مجرّد رجع الصدى لَما ذكره القرآن من باب الإشادة والتنويه لأنه مُتاحٌ للجميع.

وقد فقه أرباب القلوب من قادة المسلمين هذا المعنى وأشربوه في قلوبهم فرسموا عبر الأجيال لوحات جميلة من التأليف بين أداء حقوق الله وحقوق العباد، وقد أشفق معاوية بن خديج على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ونصحه بأخذ قسط من الراحة لَما رآه مستغرقا يومَه في شؤون الأمّة وليلَه في القيام والعبادة، فقال له عمر رضي الله عنه: إن نمتُ الليل ضيّعت نفسي وإن نمتُ النهار ضيّعت الرعية.

ولكنّ أغرب ما في سيرة داود عليه السلام استغناؤه عن خزينة الدولة التي يرأسها واكتفاؤه في عيشه بثمرة عمله اليدوي، قال رسول الله ﷺ: "**ما أكل أحد طعاما خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده**" رواه البخاري.

هكذا يميل النبيّ الكريم والحاكم الملتزم إلى التعفّف والورع فلا يأخذ أجرة من بيت المال -رغم حقّه في ذلك- فضلا عن أن يغرف

منه كما يشاء أو يتصرّف فيه كأنّه مالُه الخاصّ كما يفعل أكثر الملوك في كلّ مكان، فقد كان أشبه برجل صناعة، يتقن حرفة كانت مناسبة لذلك الزمان: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ سورة الأنبياء 80، وهو ما يشير إليه قول الله تعالى ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ سورة سبأ 10، والحقيقة أن الصناعة لم تكن عملا فرديا يمتهنه داود بل كانت المملكة الداودية حتى في امتدادها السليماني دولة صناعية بامتياز: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ سورة سبأ 13، ولهذا لم يبق لليهود من آثار عمرانية مفترضة يتشبثون بها سوى ما يزعمون من إرث داود وسليمان.

وفي هذا الوضع الجامع بين العبودية لله وإقامة الحضارة أو الخلافة بالتعبير القرآني -وهو أصحّ وأدقّ- أبلغ ردّ على العلمانية التي تروّج لاستبعاد هذا التناغم وإنكار إمكانية هذا التكامل لينفرد البشر بتسيير شؤون الدنيا بعيدا عن هدي السماء.

حظ وافر من العلم: تشير الصبغة الصناعية لدولة داود عليه السلام إلى انتشار العلم فيها، بل قد بدأ ذكر هذا النبي وابنه مقترنا بالعلم:

- ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ سورة البقرة 251.

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ سورة النمل 15

- وتكرّر ذلك في قول الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا -أي سليمان ووالده- وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ سورة الأنبياء 79.

ولا شك أن العلم في هذا السياق يشير إلى المعرفة الشرعية والنفسية والاجتماعية والتقنية لأنّ الحاكم الصالح الموفّق في حاجة إلى كلّ هذا الشّعب لخدمة الدين وتسيير الدنيا به، والدولة المؤسّسة على العلم أقرب دائما إلى الاستقرار والرخاء، كما يشهد تاريخ البشرية عامّة والتاريخ الإسلامي على وجه خاص.

نصرة الحق والدوران معه إقامة صرح الحق والحكم بين الناس بالعدل مهمّة الحُكّام الأتقياء الأولى، فلا سلطان للباطل في بلادهم ولا ظلم في الأحكام التي يصدرونها في مجالس القضاء، لأن الحاكم المؤمن خليفة في البلاد التي يُشرف على شؤونها، يتبع أمارات الحق ويُنفذ سلطان العدل بعيدا عن العواطف الهائجة ومشاعر الحبّ والبغض ونزوات النفس، بذلك تسعد رعيّته ويمتدّ ظلّ مملكته في آفاق الصلاح والخير ويتبعه الثناء الحس ن، وداود عليه السلام -النبي الملك- أجدر من يدور مع الحقّ حيث دار: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سورة ص 26.

وقد غرس الله في نفس داود حبّ الحق والعدل، فلمّا رأى مرّة أنه حاد عن إجراءات إقامتهما بتسرّعه في إصدار الحكم بمجرّد سماع

أقوال المشتكي- لوضوح القضية فيها- ومن غير انتظار دفوع خصمه بادر بالاعتراف بالخطأ والتوبة والإنابة فمرّغ هامته تواضعا لله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ (أي داود) لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ سورة ص 23 -24.

ما أروع مشهد حاكم يعتريه الضعف البشري في لحظة ما فيتسرّع بدل التروّي، ثم ما يفتأ أن يتنبه لذلك فيؤنّبه ضميره ويقوده إيمانه المتدفّق وخوفه من الله إلى الاستغفار والسجود والإنابة إلى الطريقة الصحيحة في إجراءات التقاضي.

لقد مكّن الله لداود في الأرض فكان الحاكم الصالح الذي يُنفذ شرع الله ويتحلّى بالأخلاق الكريمة ويعمر الأرض، نستقي من سيرته وتاريخه دروسا بليغة نافعة لكلّ مؤمن وللساعين لإقامة حضارة الإسلام ودولته، ففي ذلك لوحات بديعة من فقه التمكين، قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ سورة الأنعام 90.

وما أبعد هذا عن الحاكم المسلم الذي لا تمتّ سيرته بصلة إلى الأخلاق والصلاح والعدل، فهو يرهق الأمة ماديا ومعنويا ولا يمكن أن تنعم بلاده بأي خير في ظلّ الافساد في الأرض و الانقطاع عن السماء.

وعلى نهج داود سار ابنه سليمان.

المقالة الثالثة عشرة

السنن والخوارق في ملك سليمان

آتى الله تعالى سليمان عليه السلام ملكًا عظيما تمتزج فيه النبوّة بالقيادة الدنيوية، وخلافًا لغيره من الأنبياء الكرام والملوك الصالحين اجتمع له في ملكه معجزاتٌ خارقة وجانب إنسانيٌ مشرق، ولئن استحال على الحُكّام من بعده أن يحظوا بمثل ما حظي به من عطاء رباني خارق للسنن فإنّ بإمكانهم الإقتداء به في سيرته الحسنه وخلاله الكريمة وصفاته القيادية الفريدة، مع رجاء في مدد إلهي تختلف أشكاله وصُورُه، فيه التوفيق والبركة، لا يحرم الله منه عبادة الأتقياء على مرّ العصور ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ سورة الإسراء 20.

لقد وفّق سليمان في تسيير شؤون فلسطين بين السنن والخوارق، وهو الذي وُلد وعاش في بين نبوّة وقوة وتمكين وع والده داود عليه السلام.

العلم هو الأساس كان مرتكز الحكم السليماني الراشد العلم النافع الغزير الذي منّ الله به عليه وعلى والده من قبله:

- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ سورة النمل 15.

- ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا **(اي هو ووالده)** آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ سورة الأنبياء 79، وسبب الآية الكريمة كما يدلّ السياق حدوث اختلاف بين الابن والأب في حلّ مسالة عُرضت في ساحة التقاضي،

وهذا شأن أمور الفهم والاستنباط. فرأى سليمان من أمارات الحقّ وتحقيق العدل والإنصاف ما لم يُحط به داود. وليس لأحد موثق من الغلط ولا أمان من الخطأ، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ سورة الجمعة 4.

- حتى بعض جنوده أو جلسائه يُحدث بالعلم ما هو خارق للطبائع و يُشبه المعجزة: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ سورة النمل 40، بالعلم فاقت قدراته إمكانية العفريت الذي عرض أن يُحضره له في ساعة من الزمن: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ سورة النمل 39، فأحضر ذلك الانسان صاحب العلم كرسي ملكة سبأ من اليمن إلى فلسطين بين طرفة عين وانتباهتها.

وكلّ دولة تأسّست على العلم واحتفت به وبأهله وتوسعت في فنونه واعتلى سدةَ الحكم فيها أصحابُ الكفاءة والمعرفة هي من غير شكّ أدنى إلى امتلاك عناصر القوّة والاستقرار والرقيّ.

معجزات خارقة. سأل سليمان الله من فضله وطلب منه منحة ينفرد بها بين الحكّام، بل من دون الناس قاطبة: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ سورة ص 35. فاستجاب الله له وأعطاه من الخوارق ما لم يؤت غيره من بعده: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ سورة ص 36-38.

وجلب المصالح التي ينتهجها كلّ حاكم صالح عارف بمقاصد الإسلام، يُرضي ربه ويخدم شعبه.

وليس لنا أن نتوسّع كثيرا في موضوع تسخير الجنّ لأننا لا نملك من معلومات عنه سوى هذا الذي أشار إليه القرآن الكريم كواحد من مظاهر الإعجاز الرباني في نصرة نبيّه سليمان والتمكين له في الأرض، ولا يُستحسن -في رأينا- فتح باب تدخل منه الشعوذة والدروشة، وحسبُنا منه ما ورد فيه من آيات محكمات وأحاديث صحيحة صريحة نتعلم منها أن الجنّ مخلوقات مكلّفة، منها الصالح ومنها دون ذلك كالبشر تمامًا، وقد خصّ الله تعالى عبده سليمان بتسخيرها له.

- **معرفة لغة الحيوانات.** هذه منحة أخرى منّ الله بها على سليمان عليه السلام لحكمة يعلمها هو سبحانه وتعالى، وكم تاقت البشرية وما زالت تتوق -وعلماء الطبيعة فيها بصفة خاصة- إلى إدراك لغة التواصل بين الحيوانات لأنها بشهادة القرآن الكريم أمم أمثالنا أي أن لها حياة مشتركة تقتضي تبادل الخطاب بشكل من الأشكال، قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ سورة النمل 16، ويتبيّن من سياق القصة أنّ تعليم الله له تجاوز الطيور إلى باقي الحيوانات، فقد فهم كلام النملة وهي ليست طيرا: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨
فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ سورة النمل 18-19.

كما سرد القرآن الحوار الذي دار بين سليمان والهدهد، بأي لغة جرى هذا الحوار؟ هو بلغة الهدهد قطعا ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾، ويبدو انها ليست مجرد إشارات بل هي لغة لا علم لنا بها إلى الآن، وها هو العلم الحديث يكتشف شيئا من طرق التواصل بين الحيوانات والحشرات والطيور يُذهل العقل ولعلّ المستقبل يزيد الأمر وضوحا. (وكم تمنينا أن يكون للمسلمين إسهام في ذلك بدل انتظار إبداع الآخرين).

- **صرامة كبيرة** كثيرا ما يوصف أصحاب الدين والتقوى بالضعف واللين المفرط في تسيير ما تحت أيديهم من شؤون عامّة في أيّ من ميادين الحياة، وكأنّ الالتزام الديني قرين الضعف والعجز، حتى اشتكوا من قديمٍ من جَلَد الفاجر وضعف التقيُ، وهذه ليست حقيقة مسلّمة، فلولاَ الصرامة في التسيير وقيادة الجيوش والموظفين ومواجهة مختلف المواقف لماَ بنى المسلمون حضارة عظيمة ولا فتحوا البلاد القاصية والدانية، وهذا سليمان نموذج للقائد التقيّ العابد الذي يجمع بين تبتّل المحراب والقوّة في الحقّ، وهذا جانب إنساني مشرق تتجلّى فيه مؤهّلاته القيادية، ونضرب لذلك مثالين اثنين:

- ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١﴾ سورة النمل 20-21.

إنه يتفقّد جيشه العرمرم المتكوّن من الجنّ والطيور فضلا عن البشر، فيلاحظ من بين هذا العدد الضخم غياب طائر صغير بغير إذن منه، فيتوعّده بالعقاب الشديد إذا لم يقدّم فور عودته مبرّرا مقنعا شافيا لغيابه، لأنّ الهدهد هنا جندي، والجنود لا يبرحون مواقعهم في الخدمة إلا بإذن مسبق حتى لا تعمّ الفوضى ويختلّ النظام، لذلك كان ردّ فعل الملك صارما، حتى ينتظم أمر الجند وسائر موظفي الدولة في المؤسسات كلّها، والتسيّب في هذه المواطن من امارات الضعف المؤدي إلى الفوضى.

وعندما جاء الطائر المتغيّب بعذره لم يسارع القائد إلى تصديقه، فهذه غفلة يتنزّه عنها سليمان عليه السلام، وإنما كلّفه بمهمّة كان من جملة أهدافها تبيّن صدقه: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٧﴾ سورة النمل 27.

- شغل - عليه السلام - مردة الجنّ بالأعمال الشاقّة لدرء أذاهم عن الناس كما ذكرنا، وكان يراقبهم بنفسه مراقبة متواصلة كلّها جدّ وهيبة، حتى إذا مات وهو متكأ على عصاه لم يتنبه الجنّ إلى ذلك وظنّوه حيًا، وهذا يدحض مزاعم اطّلاع الجنّ على الغيب ويؤكّد خوفهم الشديد من سليمان: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝١٤﴾ سورة سبأ 14.

وهذه الصرامة من نبيّ الله في مملكته هي عين الحكمة لردع كبار المجرمين وأصحاب السوابق في العدوان وتعكير صفو المجتمع وتهديد أمن البلاد في أرواح الناس وممتلكاتهم.

ملك عظيم وعبودية خالصة. كان سليمان عليه السلام على رأس مملكة إسرائيلية متينة الأركان اشتملت على عناصر التمكين وأسباب القوة والاستقرار، وكانت حضارة تجمع بين الربانية والإنسانية، بين الدين والقوّة المادية، مثلها مثل الحضارة الإسلامية على اختلاف العصور، لهذا قال سليمان: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ سورة النمل 16، إلى درجة أن ملكة سبأ انبهرت بهندسة المجرى المائي الذي عبرته لدخول قصر سليمان و رفعت لباسها لئلاّ يبتلّ، ولم تنتبه إلى أنه مغطّى بالزجاج السميك الفاخر: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ سورة النمل 44، في هذا الجوّ المفعم بالتحكّم في الجنّ والطيور والبشر والريح والإنجازات الضخمة كانت الحياة الروحية حاضرة بجلاء، لأنّ المُلك لا يُطغي عبدًا مصطفًى تقيًا مثل سليمان ولا يُنسيه، بل هو يتقلّب في أحضان العبودية لله في جميع أحواله:

- ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ سورة النمل 40، لو لم يكن الملك على درجة رفيعة من أخلاق النبوّة لأخذه الزهوّ ولتسلّل العُجب إلى قلبه أمام هذا الإنجاز الخارق الذي حقّقه واحد من رعيّته

فأحضر كرسيّ ملكة سبأ من اليمن إلى فلسطين في طرفة عين، لكنّه قابل ذلك بالتواضع الجمّ ونسبة الفضل إلى الله تعالى واستشعار الابتلاء الرباني له في شكل منحة باهرة.

- ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ۝١٩﴾ سورة النمل 19، فهم سليمان كلام النملة وهي تحذّر قومها منه ومن جنوده أن يحطّموا مستعمرتها بخيولهم من حيث لا يدرون، فانشرح صدره وابتسم. والعلم يشرح الصدر، فكيف إذا كان علمًا لَدُنيًا لا يملكه غيره؟ ثمّ أقبل على ربّه بالدعاء والتضرّع شاكرًا لأنعمه طالبًا التوفيق لمزيد من العمل الصالح وراجيا أن يُحشر في زمرة الصالحين برحمة الله وفضله، إنّه إخبات العبد الصادق في إيمانه المتمسّك بأهداب العبودية، تحميه أخلاقه الكريمة من الوقوع في الغرور، ولنا أن نتصوّر واحدًا من أبناء الدنيا أوتيَ مثل هذا الملك العظيم بل نصفَه أو عُشره، كيف كان يُلقيه العُجب في أودية الاستغناء عن الله ويرميه في غياهب الجحود، وقد ذكر القرآن الكريم طرَفا من ذلك في قصّة صاحب الجنّتين - مجرّد بستانين من الزروع و الأشجار المُثمرة - كيف اغترّ بثروته الزراعية فجحد النعمة ثم انساق إلى جحود العقيدة: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾- سورة الكهف 35-36.

وقد ورد في بعض الآثار أن سليمان مرّ في موكبه المهيب بمُزارع يعمل في أرضه فقال الفلاح: لقد أوتي ابن داود مُلكًا عظيمًا، فسمعه سليمان فقال: لتسبيحةٌ في صحيفة المؤمن خيرٌ من ملك ابن داود، فتسبيحة المؤمن لا تزول ومُلك ابن داود إلى زوال.

إنّ هذه المدرسة الكريمة الجامعة في تناغم جميل بين الربانية والإنسانية، وبين العبادة والرقي الدنيوي حَرِيّة أن تحيى وتُرعى وتستمرّ في تخريج النخبة الطيبة من القادة الصالحين لأمّة الإسلام في كلّ زمان ومكان، وإذا فاتهم جانب الخوارق لأنه محض عطاء إلهي لا علاقة له بمؤهلات التكليف فلا تفوتهم أخلاق داود و سليمان والأنبياء القادة وخصائصهم القيادية ومميزاتهم الإيمانية، وهو ما أثّر في ملكة سبأ.

المقالة الرابعة عشرة

مواقف مؤثرة بين ملكة سبأ وسليمان

مهمة النبيّ -أيّ نبيّ- الأولى هي الدعوة إلى الله وتوحيده وعبادته، ولئن كان سليمان بن داود ملكًا يسوس مملكته كحاكم من الحكّام فهو قبل ذلك نبيّ كريم يدعو إلى الله ويحارب الشرك ويمكّن للتوحيد، ودليل ذلك في قصّته مع ملكة سبأ التي ذكرها القرآن الكريم في سورة النمل، وقد حوت من العبَر المؤثّرة ما يُثلج صدر المؤمن وينير عقله.

وسبأ بلد باليمن كما هو معلوم، أما سليمان عليه السلام فموطنه بفلسطين، شاء الله أن يطّلع سليمان على أخبار ذلك البلد وتفشّي الشرك فيه عن طريق أحد جنوده، هو الهدهد، فقد لاحظ القائد غياب هذا الجندي الصغير الحجم عن موقعه بين الطيور فتوعّده بالعقاب الشديد إذا لم يبرّر غيابه بمبرّر قوي جليّ لا مكان فيه للتلاعب، فأخبره الهدهد بعد ظهوره أنه استكشف أرضاً بعيدة - هي سبأ - وقد لفت نظرَه هناك أمران كبيران، الأوّل هو وجود امرأة على رأس الدولة تتمتّع بمُلك عظيم (يقصد الحضارة القائمة هناك والتي ذكرها القرآن الكريم في موضع آخر: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ﴾ سورة سبأ 15، والثاني هو عبادة السكّان وملكتهم للكواكب: ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سورة النمل 22-24،

وإذا كان هذا المظهر الشركي قد هال العصفور بحكم عيشه مع سليمان في بيئة مؤمنة رغم أنه غير مكلف، فقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ سورة النمل 24-25، فكيف بالنبيّ الحامل لرسالة التوحيد؟ كلّف الهدهد بحمل رسالة إلى أهل سبأ عبر ملكتهم ليتأكّد أولاً من صدق الهدهد في مبرّر غيابه، وليطّلع كذلك على حقيقة أمر تلك المملكة: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ سورة النمل 27، وقام الهدهد بالمهمّة فألقى الرسالة (ولم يسلّمها لأن هذا متعذّر على الطائر، بل يُلقيها من الأعلى) وبقي يراقب ردّ فعل الملكة وحاشيتها كما أمره سليمان، وهنا نستطيع تلمّس جملة من خصائص هذه المرأة تدلّ على استقامتها كحاكمة وعلى ذكائها ورجاحة عقلها، وهي صفات حميدة ستقودها في النهاية إلى الهداية. فهي لم تعمد إلى ردّ فعل متسرّع تغلب عليها العاطفة الفائرة، ولم تنفرد باتخاذ موقف من رسالة سليمان بل جمعت أهل الحلّ والعقد، سواء في مجلس وزراء أو البرلمان والمجلس الاستشاري، وعرضت عليهم الأمر المستجدّ، ويبيّن السياق أن دأبها الرجوع إليهم قبل اتخاذ القرارات المصيرية: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ سورة النمل 29-32، يدلّ هذا على أنها تسوس بلدها بمبادئ الشورى بعيدا عن أنواع الاستبداد والانفراد بالرأي والقرار.

ولا بدّ من التنويه إلى أن مضمون خطاب سليمان لا يقتصر على ما ذكرته الملكة، فكأنها أخبرتهم بالمقدمة والخاتمة، أما الموضوع فلا شكّ أنه اشتمل على تعريفها بالإسلام ودعوتها وقومها إليه، إذ لو اقتصرت الرسالة على التهديد ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ لما استقام وصفها للخطاب بأنه كريم، ممّا يدلل على رسالة لطيفة الصياغة ، ثم إن الله تعالى يقول ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ سورة الاسراء 15، ومهمةّ الرسول -أيّ رسول- البيان والتعريف والتبشير قبل الوعيد والتهديد، فلا ريب أن رسالة سليمان تضمّنت ما تقتضيه الدعوة من تعريف بالإيمان وعناصره وكشف لمفاسد الشرك وعوقبه، واختُتمت بالحزم والصرامة لأنّ النبيّ عرف من الأخبار التي حملها إليه الهدهد اعتزاز مجلس شورى الملكة بقوّتهم وتلويحهم باستعمالها. فضمّن خطابَه ما يشير إلى عدم خوفه منهم، واستبق ميلَهم إلى الخيار العسكري بخطاب قويّ يدلّ على امتلاكه قوّة أكبر و أفتك من قوّتهم، حتى لا يفكّروا في حمل السلاح في وجهه، وتلك هي الحكمة بعينها في مثل هذه المواقف.

ردّ أصحاب الشورى بقولهم: ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝٣٣﴾ سورة النمل 33، ركنوا إلى أسباب القوة والعدد والعتاد العسكري التي يملكونها وأكّدوا استعدادهم للحرب، وتركوا كلمة الفصل لملكتهم، ممّا يؤكّد اطمئنانهم إلى حنكتها وحكمتها.

استمعت الملك الحكيمة إلى مداخلات قادة الرأي والسياسة والجيش وأبدت تريّثا في اتخاذ أيّ قرار حاسم، ونطقت بكلمة من

ذهب، هي سنّة يقرّرها علم الاجتماع السياسي: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ سورة النمل 34، وهذا مؤشر على معرفتها بتاريخ الأمم والممالك وبقوانين الحروب الظالمة، فالملوك -أي الحكّام- إذا غزوا مجتمعًا ساقوا معهم الفساد المادي والمعنوي، وهو ديدن الاستعمار الغاشم دائما، تمتدّ يدُه القوية بالتخريب فلا تذر عمرانًا ولا زراعة ولا بنية تحتية، وتمتدّ يده في نفس الوقت إلى الأخلاق فتعكّرها، ويطال فسادُه كبراء البلد المحتلّ وعلماءه ووجهاءه الأصلاء وزعماء الجهاد فيعمل على إذلالهم بشتّى الوسائل حتى ترتبك الأمّة المغلوبة وتنهار نفسيًا فتفقد القدرة على مواجهة تحدّي الاعتداء، ويدلّ السياق على أن عبارة ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٣٤﴾ النمل 34، ليست من كلام المرأة ولكنها تعقيب من الله تعالى عليه، فيه إقرار له، والله أعلم.

ما الإجراء الذي تُقدم عليه الملكة وهي ليست على يقين من أمر سليمان، أهو نبيّ كما يدّعي أم حاكم يتذرّع لغزو بلدها؟ انتبهت إلى حيلة تدلّ على ذكائها ونظرها الثاقب، فهي تعلم الفرق بين أصحاب المبادئ وأصحاب المصالح، وبين أبناء الدنيا وأبناء الآخرة، قرّرت أن تمتحن سليمان بالمال لعلمها أنه فيصل التفرقة بين الأنبياء والدعاة المخلصين، وبين البُغاة الذين يستهدفون الثروات ويجمعون الكنوز ويستولون على موارد الأمم المنهزمة، كما هو حال الاستعمار في كل زمان: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾ سورة

النمل 35، والمعادلة بسيطة، فإمّا أنّ سليمان مُدّعٍ للنبوّة، عينُه على الأموال فسوف يقبل الهدية -وهي من غير شكّ ممّا يناسب الملوك من الجواهر الثمينة والأحجار الكريمة ونحوها- وسوف يسكت عمّا يزعم من رسالة سماوية، وإمّا أنه نبيّ فعلا فلن يلتفت لهذا الإغراء وسيبقى ثابتًا على دعوته، وهذا لعمري عين الامتحان الذي يُخفق فيه أصحاب الشعارات والأغراض المغلّفة بالدين والقيم، فضلا عن عبيد الدنيا المجاهرين بلهثهم خلف الشهوات والملذّات.

وأدرك سليمان أبعاد مكيدة الملكة فكان ردّه حازما كما هو متوقع من مثله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ سورة النمل 36، سمع مُوفد الملكة هذا التصريح الذي من شأنه قطع الشكّ باليقين بالنسبة لحقيقة سليمان وأهدافه، فهو في غنى عن الهدايا -من الناحية المادية-، وصاحب إيمان واعتراف بالأفضال الإلهية عليه، فلييأس من رام إغراءه وزحزحته من ساحة المبادئ إلى ركن المصالح، ثمّ وجّه هذا الخطاب الحازم المباشر لرئيس الوفد: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ سورة النمل 37، يعرف سليمان امتلاك أهل سبأ لأسباب القوّة وتلويح قادتهم باستعمالها ضدّه، فجاء موقفه غاية في الصلابة حتى لا تحدثهم أنفسهم بالميل إلى الخيار العسكري، وقد تأكّدوا أنه ليس ملكًا متعطّشًا لجمع الأموال بال هو صاحب رسالة التوحيد يبلّغها للناس كافّة لإخراجهم من ظلمات

الشرك وإنقاذهم من براثن الكفر، وهذا ما يشير إليه قوله السابق: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، فغايته نشر الإسلام وليس توسيع مُلكه.

ولمّا قفل الوفد راجعًا تأكّد سليمان أن الملكة مقبلة إليه (ربما استنتج ذلك أو جاءته عيونه وجواسيسه بخبر سيرها إليه) فأراد أن يُحدث لها مفاجأة تزلزلها وتؤكّد لها عيانًا أنّ لدى سليمان من عناصر القوّة ما يفوق قدرات مملكتها المتمكّنة المتينة: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ سورة النمل 38، فعرض عفريت أن يأتيه به في ساعات قليلة، وتطوّع صاحب العلم أن يقوم بالمهمة ويحضر الكرسيّ في طرفة عين، وهذا أمر مُدهش لأنّ المسافة بين اليمن وفلسطين بعيدة تُقطَع آنذاك في شهور من السير الحثيث، فكيف يكون اندهاش الملكة حين تجد عرشها وقد وصل قبلها إلى سليمان...؟ لا شكّ أنها ستسلّم بتفوّق حضارة فلسطين على حضارة سبأ، وقوّة سليمان المادية على قوّتها، وهذا يفتّ في عضتها لأن الناس -في غياب المقاييس الإيمانية- يحتكمون إلى الموازين الأرضية والمادية، والغلَبة هنا لنبيّ الله سليمان، وأسبابُ التمكين الدنيوي اللافت للنظر إذا صاحبت الدعوة إلى الله آزرتها ويسّرت قبولها لدى كثير من الناس، وذاك ما حدث للملكة كما يدلّ السياق وتنطق القصّة: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾ سورة النمل 41، امتحنته المرأة بالمال فردّ بالمثل ولكنه أجرى لها اختبارًا ذهنيًا عويصًا، فقد أدخلوا على كرسيّها شيئا من

التعديلات الطفيفة غير الجوهرية لتكون في حيرة من أمرها، فالعرش ليس شيئا اشترته من السوق وإنما صُنع لها خصّيصا وعليه لمستُها الشخصية فيمكن أن تعرفه بسهولة، لكن كيف وصل قبلها وقد تركته خلفها؟: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ سورة النمل 42، فماذا عساها أن تقول؟ عرفته لكنها إن ردّت بالإيجاب واجهها سؤال وصوله قبلها، وإن اختارت النفي بدت غبيّة لأنّ عرشها متفرّد لا يتوفّر مثله في الأسواق، فاهتدت إلى إجابة كلّها ذكاء وفطنة: ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ سورة النمل، فخرجت بذلك من المأزق لأنها لم تجزم لا بالإيجاب ولا بالنفي، ولا شكّ أن الدهشة قد امتلكتها من هذا الأمر العجيب الذي يؤكد امتلاك سليمان لقدرات خارقة، فأراد أن يستغلّ حالة الإثارة التي اعترتها ليسدّد لها ضربة ذهنية أخرى قاضية: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ سورة النمل 44، للملكة حضارة مزدهرة لكنها هنا أمام إنجاز عمراني لا عهد لها به، فمدخل قصر سليمان به مجرى مائي يتعيّن اجتيازه للدخول، فرفعت ثيابها المتدنية حتى لا تبتلّ، فكشف لها سليمان عن مفاجأة من العيار الثقيل هي أن المجرى المائي مُغطّى بالزجاج السميك الناعم، المصنوع بطريقة هندسة دقيقة وبديعة تخدع البصر، فلم تجد بدًا من التسليم لأمارات النبوّة وقوّة المُلك: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ سورة النمل 44،

لقد دعا سليمان الملكة بما يناسبها وحالَها من وسائل وأساليب، فنجح في إدخالها إلى الإسلام، وبما أن الناس على دين ملوكهم كما تقول القاعدة الاجتماعية، ونظرا لثقة قادة سبأ في ملكتهم لحنكتها فمن المفروض أن يكون دين التوحيد قد اجتاح اليمن بعد عودتها، ويكون الله تعالى قد جعل منها مفتاح خير و مغلاق شرّ، أنقذها من الشرك وأنقذ عبرَها بلدا بأكمله.

ماذا بقي أن نضيف سوى أن امتلاك أصحاب الدين والقيم والأخلاق لناصية التمدّن والقوّة حريَ أن يخدم الدعوة ويبسط نفوذها بكيفية أيسر وأسرع، وآية الإعداد تشمل هذا المعنى، كما أنّ امرأة عاقلة أريبة قد يتحقّق على يديها خيرٌ كثير، وهي على كلّ حال أفضل من الذكور الذين يراوحون مكانهم في دائرة السلبية والصفرية؟ لا بدّ من تطوير أدبيات الدعوة انطلاقا من قراءة موضوعية مقاصدية للقرآن الكريم للخروج بالمرأة من الدروب المعبدة والأفكار المعلّبة وتحريرها من أسر الأعراف الداخلية المنحرفة والتحريف الخارجي الذي ملأ دنيانا ودنياها فضاعت المرأة والرجل والدعوة بين نوعيْن من التقليد المرَضي لا يمكن الانعتاق منه إلا بتلك القراءة النوعية الأصيلة لمرجعيتنا في ضوء الحقائق لا الأوهام والدراسات الأصولية والنفسية والاجتماعية المتعمقة والمستندة إلى التجارب الحية وسنن الله تعالي في خلقه.

المقالة الخامسة عشرة

المحن بين الابتلاء والعقوبة

نقتطف مقطعين من رسالة لأحد شيوخ التربية في الحركة الإسلامية يناقش هذا الموضوع بالغ الأهمية والخطورة على الصف الإسلامي ومشروعه الحضاري، يقول الشيخ: "**هكذا بكل هذا الوضوح نرى الابتلاء الذي يتعرض له أصحاب الدعوات وهو سنة من سنن الله التي لا تتبدل في الدعوات وليست بسبب أخطاء**". ويقول في موضع آخر: **إن المحن على طريق الدعوة سنة الله في الدعوات وليست نتيجة أخطاء بل إن عدم تعرض أصحاب الدعوات للمحن يشكك في صحة الطريق الذي يسلكونه وليس من الممكن لأصحاب الدعوة تفادي المحن أو تخفيف حدتها أو تقليل مدتها مع دوام استمساكهم بها**".

نستخلص من الفقرتين وهما تلخصان تصوّر أغلب الشباب الإسلامي ما يلي:

1- المحن سنة لازمة لا انفكاك عنها.

2-وقوعها طبيعي ولا يدلّ على ارتكاب خطأ يستوجبها.

3-نزول المحن دليل على صحة الطريق المتبعة.

4-المحن لا يمكن تفاديها ولا التخفيف من حدتها ولا تقليص مدتها.

الآن نسأل: هذه المقررات التي أصبحت بديهيات عند الشباب المتحمّس والفصائل الإسلامية غير الراسخة في فقه الدعوة ومقاصد الشريعة ماذا يسندها من الكتاب والسنة؟

وبعبارة أخرى هل هي نتيجة دراسة واعية متعمقة للإسلام أم هي نتيجة المحنة الظالمة التي ألمت برجالات الحركة الإسلامية وطال أمدها فجعلت بعضهم يؤصلون لها حتى ترسخ في الساحة ما أصبح يعرف بفكر المحنة؟ إنه لا يخفى على العارف بالأصول والمقاصد والنصوص والسنن الاجتماعية ما في المقطعين المذكورين من مبالغة سافرة في التهويل من إلزامية المحنة، وهنا لابد من طرح سؤال جوهري هو هل يرتكب الدعاة أخطاء أم لا؟

الرد بالإيجاب لا شك فيه، لذلك يطرح سؤال ثان هو: كيف يمكن التعرف على أخطاء الدعاة -سواء كانوا أفرادا أو جماعات أو هيئات- إذا لم يخضع نشاطهم للتقويم؟ وواضح أن الجزم بأن المحن ليست نتيجة أخطاء يعفي الدعاة ابتداء من قضية المراجعة والنقد الذاتي وتقبل النقد الخارجي ويرسخ في أذهانهم أن ما أصابهم من أذى أمر طبيعي من جهة ودليل على صواب سعيهم من جهة أخرى، وهذا في الحقيقة مكمن الخطر لأنه يورث نوعا من التزكية والذاتية ويحول دون تقويم العمل الدعوي و يكون سببا للانغلاق والتقوقع ورفض النصيحة والنقد وعدم الاعتبار بالنوازل والتغافل عن الأخطاء والاستمرار في الأسلوب المتبع ولو جرّ سلسلة من المحن

تتوالى حلقاتها بغير نهاية، ولا يغني في هذا الساق أبدا الاستشهاد المتسرع بجزيئات من القرآن الكريم أو السنة المطهرة لأن المحنة كسنة إلهية أكبر من أن تفهم من خلال الجزيئات وإنما يحاط بأمرها بالتناول الكلي الذي يستحضر كل النصوص المتعلقة بها ويربط بينها وينقي ما يبدو للنظر السطحي متناقضا، فلماذا نتمسك بقول الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ سورة التغابن - 11، ونفهم منه إلزامية المحنة وهو لا يعني ذلك أبدا ونغفل عن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ سورة الشورى -30؟ والحاصل أن نظرية المحنة السائدة أقرب إلى رد الفعل البشري منه إلى البناء التصوري المنهجي المؤصل، وقد صرنا ندرك خطورة هذه النظرية عندما أنتجت مازوشية حقيقية لدى قطاع كبير من الإسلاميين تمثلت في المنهج الدموي المتلذذ بالآلام والدماء والأشلاء والسجون.

إذًا هل المحنة لا تعتبر في الدعوة إلا ابتلاء فقط؟

المحنة والابتلاء

قد تكون المحنة مما يبتلى به الإنسان أو أي دعوة تغييرية من أجل التمحيص والاصطفاء، وهي قبل ذلك سنة في حياة الخلق جميعا وتحيط بأصحاب الدعوات خاصة مهما كانت توجهاتهم، فمن ثبت منهم وصدق جاءه الفوز والتمكين، حدث هذا مع نيلسون منديلا وألكسندر سوليجنتسين وحركات فكرية وسياسية يعرفها الجميع، ونجد في مقدمة كل هؤلاء الأنبياء قديما والمصلحين قديما وحديثا.

والمقياس هنا أن أصحاب الدعوة يتحرون الصواب ويتمسكون به ويراجعون أنفسهم وأساليبهم ووسائلهم بانتظام للثبات على المنهج الصحيح ومع ذلك تنزل بساحتهم بعض المصائب- وليس بالضرورة القتل والحبس كما سنوضح- لتزيدهم تمسكا بقضيتهم.

المحنة والعقوبة

ولكن الطامة الكبرى في التغافل عن أن المحنة قد يتسبب فيها صاحب الدعوة نفسه بأخطائه وسلبياته فتخرج من سنة الابتلاء إلى سنة العقوبة، وكما أن الذي يتعامل مع أسلاك الكهرباء بدون أدوات واقية يصاب بالأذى جراء إهماله فإن الذي يتعامل مع قضايا الدعوة والحركة بدون مؤهلات وبغير علم وبصيرة في جزئية من الجزئيات فضلا عن الأمور الكبرى يصيبه الأذى جراء إهماله، ومن عمى البصيرة أن يعدّ ذلك ابتلاء وسنة كونية لا يمكن تفاديها ولا دليل امتياز كما يتصور(المازوشيون)، والمسألة إذا ليست محسومة بتلك السهولة والسطحية المدهشة إنما هي مسألة مقاييس ربانية علمية صارمة لا لا تتبدل ولا تحابي، فإذا توفرت لدى الدعاة المؤمنين سلامة القصد والوسائل المناسبة كانوا أبعد عن الفواجع فإذا ألمت بهم كانت ابتلاء يصبرون عليه لينالوا الجزاءين , فأما إذا شاب عمَلهم فسادٌ في النية وعطب في الوسائل ولم ينتبهوا إلى ذلك كان حقا عليهم أن تصيبهم السنة الماضية في شكل محن هي هنا عقوبة على الخلل الموجود وليست تزكية كما يظنون.

وهذا نبي الله يونس عليه السلام لم تكن محنته ابتلاء وإنما هي عقوبة على خروجه من دار الدعوة بغير إذن إلهي ولذلك وجدناه يتهم نفسه بتنزيهه لله عز وجل: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ الانبياء - 87، ولو أن الدعاة فقهوا هذا المعنى لعدّوا المحن منبهات توقظهم ليحاسبوا أنفسهم وإذن لجنبوا أنفسهم ودعوتهم وأمتهم كثيرا من المصائب التي استنزلوها بغفلاتهم.

هل المحن مقياس الصواب؟

لا يختلف المنصفون في الإجابة بالنفي بل حدث أكثر من ذلك بسبب الأخطاء والأهواء والتهور والمجازفة المجانية، وليس من الخير ولا العزة في شيء أن نتمسك بالأوهام أمام الحقائق الناطقة، ولا ننكر مع ذلك أن ما لحق ببعض الحركات في فترات معينة كان بالمقاييس الصحيحة ابتلاء إلهيا خرجت منه كالذهب الإبريز، ولكن هذا يكاد يكون الاستثناء الذي يؤكد القاعدة التي أصبحت مع الأسف هي العقوبة الإلهية على الأخطاء النفسية والميدانية، وإذا بلغ الإسلاميون غاياتهم دون سجون ولا مواجهة دموية فهل هذا دليل على أنهم على خطأ؟ وأكثر من ذلك ماذا نقول عن أنبياء كرام لم يذكر القرآن أن المحن قد صبّت عليهم صبًا بل ذكر تمكينهم في الأرض، فهل كانوا إذن مخطئين؟ وهو حال داود وسليمان بالذات...

إن تظافر النصوص الشرعية والتجارب التاريخية والواقع المعاصر يسمح لنا أن نجزم بأن المحن ليست بالضرورة مقياسا للصواب بل

يسمح لنا بالبحث عن بديل عن نظرية المحنة ينسجم مع روح الإسلام ومقاصده ونصوصه ويستفيد من رصيد التجربة المعاشة.

فكر المحنة وفكر العافية:

إن المشكلة لا تتمثل في تعرض أو عدم تعرض أصحاب الدعوات للمحن -فهي قضية محسومة بسنة الابتلاء- ولكن تتمثل في سيطرة فكر المنحة على العقول والسلوكيات باعتباره الفكر الوحيد المتاح، وهذا لا يشهد له لا الوحي ولا العقل ولا الواقع، فداود وسليمان عليهما السلام وقبلهما إسحاق وإسماعيل عليهما السلام مثلا نجحوا في رسالتهم بفكر العافية وكذلك الأمر بالنسبة لرسول الله ﷺ الذي لم يؤصل للمحنة بل أصّل للعفو والعافية والسلام والأمن من غير أن ينفي سنة الابتلاء، فما المقصود بالابتلاء على وجه التحديد؟ هل هو بالضرورة التعذيب والمشانق والمعتقلات؟

إن الابتلاء بالنسبة للدعاة قد يأخذ بعض هذه الأشكال لكن في الغالب يتمثل في طول الطريق وإعراض الناس وسخرية الوجهاء وذهاب المال والتضييق بأنواعه، لكن التفسير الخاطئ لتاريخنا جعل منه مصدر محن لا تنتهي ومرجعية للصدام والبلايا حتى ذهب البعض إلى اعتبار غياب التصادم مع السلطة واغلاق باب السجون دليلا على غياب العمل الإسلامي ذاته، وهذه المازوشية واضحة المعالم في أدبيات فترة المحنة وفي الأناشيد الإسلامية والتأريخ للحركة، وانحرف معنى التضحية ليصبح محصورا في دفع النفوس إلى التصادم

من أجل السلطة بيد أن من أفضل التضحية بذل الوقت والجهد والمال في مشاريع البناء الروحي والعلمي والحضاري لكن أفكار المحنة أفكار قاتلة لا تكاد تترك مجالا للعمل المتأني العميق في الميادين السياسية والدعوية والاجتماعية والتربوية وغيرها بل إن التركيز على هذا الفكر يعتبر من أصول التثبيط والتوهين، إذ بدل إفساح المجال للشباب للإبداع والعطاء في ظل العافية -مع التعريف بسنة الله العامة في الابتلاء- يحدث تركيز عجيب على الدماء والدموع والمشانق والأخدود، وهذا ليس من شأنه تكوين العاملين للاسلام بل هو أدنى إلى تكوين مجموعات انتحارية تترقب الضربات بسبب وبغير سبب ولا يهدأ لها بال إلا بالصدام.

إن فكر العافية هو الأصل في العمل الدعوي وهو يهدف إلى إرساء قواعد وآليات الحركة الواعية التي تشغل أي حيز متاح بالعطاء والنشاط وتتجنب التعرض للمحن ما استطاعت الى ذلك سبيلا لأن هذه المحن ليست ضربة لازب بل يمكن -ويجب- تفاديها بتفادي أسبابها من غير أن يعني ذلك الفرار من الزحف ولا إنكار سنة الابتلاء التي لا مندوحة عنها، إنه فكر يسمح بتكثير الأصدقاء والمتعاطفين والعاملين بدل تكثير الأعداء والخصوم والمتوجسين... فهل يعني هذا أنه إيثار للعافية على حساب الدين؟ هذا فهم من حجبتهم أجواء المحنة عن إبصار ساحات المهادنة والتغيير الهادئ والبذل الصامت وغلب عليهم تمني لقاء العدو رغم أننا أمرنا بعكس

ذلك، وإنما المطلوب إتباع المنهج الدعوي وتفادي أسباب الفتن، وهذا فيه خير كثير جدا خلافا للتصور السائد، كما أنه يتطلب دوام المراجعة للوقوف على الأخطاء الجالبة للمحن، فإذا تجنبنا العقاب على الأخطاء وجاء مع ذلك الأذى فهو في هذه الحالة ابتلاء نصبر عليه، ولن يكون أبدا ماحقا ولا معوقا لأنه جزئي مؤقت تؤدى من خلاله مهمة التمحيص والتنقية، فالواجب يقتضي الانتقال من الدروب المعبدة إلى فكر العافية وعدم مصادمة السنن في عملية التغيير وذلك من شأنه فتح العقول والقلوب والمجالات الشاسعة المتعددة للدعوة والحركة، وإذا كان شيوخٌ معتمَدون يخالفون هذا الطرح فالحجة ليست فيمَن قال ولكن فيما قال، والأمر عندنا محكوم بنصوص الآيات ومنطوق الأحاديث الصحيحة وليس أبدا إقرارا بالأمر الواقع.

ولا يخفى أن ما سبق يتناول العمل الدعوي المعروف أما الجهاد حين يتوجب فله حديث آخر، والمقاومة في فلسطين وغيرها من البلاد الاسلامية المحتلة فخر للدعاة وميدان لبذل المهج وإرهاق الدماء من أجل النصر والجنة.

ولفكر العافية تأصيل قرآني لا يجوز التغافل عنه.

المقالة السادسة عشرة

فكر العافية

بفعل عوامل موضوعية وأخرى ذاتية عاشت الحركة الإسلامية ردحا من الزمن على وقع وتوجيه فكر الصدام المنبعث من ثقافة خندقية لا تكاد تخرج إلى نور الشمس ووضح النار، وليس هدفنا هنا محاكمة ذلك الفكر ولا تقويم تلك الفترة وإنما هو العبور مباشرة إلى نقيضه بأعصاب باردة لا تلهيها العواطف المتأججة في صدورنا إلا في إطار الضوابط الشرعية والنظرة الأصولية.

إن الفتية أصحاب الكهف لمّا قاموا من نومهم وفكّروا في تدبير حاجاتهم احترزوا من كل أشكال التحدي غير المتكافئ والصّدام غير البصير وآثروا العافية: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩﴾ الكهف - 19، أكـــدوا على الحركة في صمت بعيداً عن الإثارة واستجلاب الأذى، وهذا من الفقه الذي ينبغي لأبناء الحركة الواعية والمنهج الدعوي أن يتسلحوا به مع العلم أن الكتاب والسنة يطفحان بأصوله ومقاصده وحتى تفاصيله لمن أزاح عن بصره غشاوة الأفكار المعلبة وتقديس تراث العلماء لمجرد أنهم عظماء!

وبدل الخوض في تعريفات اجتهادية لفكر العافية نفصل التركيز عن مقوماته ومظاهره في عجالة تثير الموضوع ولا تغني عن التعمق فيه:

البناء بدل الهدم:

لقد آن أن نتفهم جيدا أن الإسلام بناء مفصل وهدم مجمل، فهو لا يعمد إلى الهدم إلا بالقدر الضروري الذي تتطلبه عملية البناء الشامل المتكامل، والحقيقة أن كثيرا من الشباب الاسلامي عكسوا الأمر فركزوا على هدم ما هو موجود من مفاهيم ومؤسسات وممارسات وأحلوا محله أدبيات هي أقرب إلى الكلام العام والمثالي الذي مفاده أن الإسلام هو الحلّ! هكذا... دون تفصيل للبديل المقترح ولا استبقاء للصالح الموجود.

إيقاد شمعة بدل سب الظلام:

وسيرة رسول الله ﷺ والسلف الصالح حجة في هذا الباب، فكم قام الرسول ﷺ بأعمال تبدو صغيرة لكن عملية التراكم أدرجتها كعوامل فعالة في منهج التزكية والتغيير وإقامة البناء الجديد الشامخ، ولذلك أوصى ﷺ بالكلمة الطيبة والثغر الباسم والتصدق ولو بشق تمرة، بيد أننا غدونا قوما يسبون الجاهلية ويشتمونها ويجرحونها لكنهم لا يقدمون عملا مجديا فعالا لتغييرها على مستوى الأفكار والخطط والبرامج والدراسات المستقبلية ونحو ذلك، إلا بعض الجهود المشكورة التي لا تفي بالغرض ولا تؤدي واجب الكفاية.

استعمال الأسلوب الطبيعي في التغيير بدل الأسلوب الجراحي القصري

هذا الأسلوب بطيء لا يقدر عليه المستعجلون لذلك لا يستهوي إلا القليل من الإسلاميين ذوي البصائر وعقلية الانسجام مع السنن الربانية في الكون والخلق، لكنه وحده الطريق الموصل، فالرسول ﷺ لم يهدم صنما في مكة لأن ذلك كان سيؤدي إلى استئصال الدعوة الوليدة لكنه ربى رجالا انتقلوا من عبادة الأوثان إلى تحطيمها بأيديهم باعتبار ذلك من أكبر القربات أي عن قناعة لا يُخشى معها أي فتنة داخلية، كما أنه -عليه الصلاة والسلام- لم يؤد فريضة الحج بعد فتح مكة وانتظر عودة التقويم الزمني إلى طبيعته بعد أن تصرّف فيه العرب بالنسيء، وقال بعدها **إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض** أي عاد التقويم إلى حالته الطبيعية، فمن ضمانات النجاح أن نتربى على اعتماد العمل الدؤوب المتواصل -وأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ- ولا نعوّل على ساعات فورة الحماس وغليان الدم، فإنه من السهل الإمساك بالسلاح وإطلاق النار لكن الصعوبة تكمن في الإمساك بالقلم والصبر عليه في عمليات تحصيل المعرفة والتخطيط والدعوة والإنتاج، والله تعالى قد ندب إلى القلم لا إلى المسدس.

إن مادة الدعوة ووعاء الإصلاح هو مجتمعنا بما فيه من عناصر صحية ومرضية، وأحسن طريقة لدعوته هي تبني همومه والسعي إلى حل مشكلاته لا كخطّة تكتيكية وإنما كمبدأ ثابت في حركتنا، والدعوة امتداد لسعي الأنبياء والمرسلين ودأب العلماء العاملين، وهؤلاء منبثقون من مجتمعهم إذا استعلوا فاستعلاؤهم إيماني لا علاقة له بالتكبر ولا احتقار الناس إنما هو مجافاة للفساد والانحراف إلى جانب حب صادق متدفق للمدعوين يدفعهم إلى تبني قضاياهم وانشغالاتهم وإنفاذ شرع الله فيها في إطار درء المفاسد وجلب المصالح، وقد أمرنا بقضاء الحاجات وتفريج الكربات كلون متقدم من ألوان العبادة لله تعالى، وهناك أنبياء ما من وظيفة لهم -بعد تحرير التوحيد- سوى الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي والخلقي والسياسي كما كان شأن شعيب ولوط وموسى وهارون عليهم السلام.

إنجاز الأعمال في العمق

إن عشرات من المواضيع المهمة والمشاريع النافعة لم تشبع بحثاً ولم تعمر طويلا بسبب الضجر الذي يصيب كثيراً من أبناء الحركة الإسلامية -بل ومن الحركات نفسها- من الاكباب على العمل مدة طويلة مما جعل أعمالنا كثيرا ما تقف عند نقطة البداية و مستوى السطح فتخرج جيلاً ممن يعلمون ظاهرا من الإسلام ومن الواقع، لا يعملون فإذا عملوا لا يواصلون، فأنى للنتائج أن تتحقق كما نأمل؟

إننا لو ذقنا حلاوة العمل المتعمق لحال ذلك بيننا وبين تخبطات مؤسفة ما زالت الأمة تتجرع غصصها رغم علمنا أن الله يحبّ إذا عمل أحد عملا أن يتقنه.

هذه بعض مقومات ومظاهر فكر العافية نتبعها بتحذير ملحّ من ترك نفس المسلم فريسة للفراغ، والفراغ في ميدان الدعوة يفضي إما إلى التساقط أو إلى تبني فكر الصدام.

كما نؤكد أن عدم التشبع بفكر العافية يفرز في الساحة الإسلامية نماذج غريبة من الدعاة ما كان يجوز أن توجد فيها، فهناك:

الداعية الحُطيئة: همّه السب والتجريح... وباسم الإسلام! بينما لا يكون الملتزم بدينه سوى عفّ اللسان حلو المنطق اقتداء بالرسول ﷺ وامتثالا لأمر الله" وقولوا للناس حسناً".

الداعية براقش: الذي يقوم بعمل طائش يجرّ على الدعوة مصائب فادحة لأنه لا يحسن العمل الصامت المتأني فيورد أهل الحق موارد الهلاك بتصرّفه الأرعن.

الداعية الأعرابي: أي صاحب الروح الخشنة والطبع الغليظ، لا يحسّ بجمال ولا يملك ذوقاً حضاريا، فلم يبق له سوى التحريم ورؤية البدع والمنكرات في كل مكان وفعل، بمناسبة وبغير مناسبة، يتكلم باسم الإسلام لكنه يتصرف في الأحكام وفق مزاجه هو فيضرّ

بالدعوة ويصد عن سبيل الله من حيث لا يدري، وكثيرا ما يفضي نمطه إلى نزاعات وصدامات نحن في غنى عنها.

فليت أبناء العمل الإسلامي يلتفتون إلى أهمية فكر العافية فيتفقهون فيه على ضوء مقاصد الإسلام ونصوص الشريعة فينتفعون وينفعون ويتبؤون به مركز الريادة والامامة.

المقالة السابعة عشرة

معجزات الفعل الانساني

اختصّ الله تعالى ذاته بإحداث المعجزات التّي يشاء حين يشاء فيجري الخوارق التّي تجاوز حدود الزمان والمكان والطاقة وحتى الفهم البشري، لكنّه لم يحرم الإنسان من تحويل فعله إلى معجزات بشرية محكومة بعوامل الزمان والمكان والطاقة، ومؤثرة فيها باتجاه تفجير إمكانات الخير والصلاح في كل مجالات التحرّك والنشاط، وذلك من خلال تحويل الأفكار الحيّة الجيّدة إلى آلات فاعلة ومشروعات نافعة يحرّكها الفعل الإنساني ويباركها صاحب الخلق والأمر سبحانه وتعالى، فيكتسب الفعل الإنساني بُعده الإبداعي في مجالات التربية والاقتصاد والإغاثة والجهاد والتحرير وبناء الحضارة.

إذا كان القرآن الكريم ارتقاءً بالدليل من المعجزة الآنية إلى مشاهدة النتائج عند التطبيق في الواقع فإنّ هذه القاعدة تشمل أيضا عمل الإنسان المبدع المسك بناصية الأسباب المتوكّل على ربّه الواثق في قدراته العقلية والنفسية والعملية ليسرح في عالم التسخير الذي تمتدّ آفاقه إلى جنبات الكون كلّه بأمر الله تعالى ومشيئته.

ولنا أن نتدبّر آي الذكر الحكيم لنقف على عديد الأمثلة البيّنة المشرقة للفعل الإنساني المؤثر كشرط لازم لحدوث المعجزة، ونكتشف أنّ الله تعالى يعلّمنا إتباع السنن واعتماد الأسباب حتّى عند

الخوارق التي يجريها هو - سبحانه عز وجل - والتي كان يمكن أن يجريها خارج السنن والأسباب:

1. فهذا إبراهيم عليه السلام يعيش تجربة إحياء الموتى ليس كمتفرّج ولكن عبر عمل يده، وذلك ليخرج الإنسان المؤمن من مدرّج التفرج إلى الالتحام ميدانيا وعمليا بالتجربة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ سورة البقرة 260.

إنّ الله تعالى هو الذي أجرى المعجزة ولكن بواسطة يد إبراهيم عليه السلام الفاعلة.

2. وهذا موسى عليه السلام يسأل ربّه توفير الماء لقومه بعد أن نفد منهم في الصحراء وصار الموت عطشا يتهدّدهم، فلم يفجّر الله تعالى بئرا ولا عينا بفعلْ كنْ -وهذا عنده أيسر شيء- لكنّه أمر نبيّه أن يبذل جهدا رمزيا ليجني الثمرة وتتحقق على يده المعجزة: ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ﴾. سورة البقرة 60.

3. وهذه مريم تضع مولودها تحت النخلة -وهي فتاة في مقتبل العمر- وتحسّ بلسعة الجوع، وكان يمكن أن يطعمها ربّها بغير أسباب ومن غير أن تحرّك يدها، لكنّه يأمرها أن تعملْ لتأكل حتّى وإن كان

العمل المطلوب مجرّد جهد رمزي: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۝٢٥﴾ سورة مريم 25.

وماذا عسى فتاة نفساء أن تحرّك في جذع نخلة معمّرة ضخمة؟ إنّه التأكيد على الفعل الإنساني ليكون شأن المؤمن في حياته كلّها.

هذه أمثلة تؤكّد على ضرورة بذل الجهد -مهما كان رمزيا- لتحقيق النتائج الباهرة كتجربة إعادة الحياة والمحافظة عليها بالطعام والشراب.

ويحوي القرآن الكريم وصايا جليّةً بأهميّة الفعل الإنسانيّ القويّ مبطّنة في تجارب تربويّة وروحيّة واجتماعيّة محورها أنبياء وعباد صالحون هم محلّ قدوة وتمثّل:

موسى والخضر: عندما دخل النبيّ والعبد الصالح في العمليّة التعليمية لم يأخذ ذلك شكل التلقين في حجرة مغلقة وإنّما اكتسى ثوب الحركة والنشاط والهمّة ليكون تعليماً ميدانياً حيّاً يستجمع معاني الإيجابيّة والقوّة في التحصيل، لذلك تكرّر لفظ فانطلقا ثلاث مرّات بعدد التجارب الّتي خاضاها في السفينة ومع الغلام ثمّ في قرية البخلاء سورة الكهف (71-74-77)، وتوحي كلمة الانطلاق بالمعاني الّتي ذكرناها، وهي بكلّ تأكيد ضدّ القعود والتلقّي الضعيف والإرادة الهزيلة.

وقد أصبحت المدارس والمعاهد والجامعات الراقية تعتمد هذا المنهج الحيويّ بدل القبوع الدائم في الأقسام، وصار الأساتذة

يصطحبون طلبتهم إلى مكوّنات الطبيعة والمؤسّسات المختلفة والمتاحف ليتعلّموا من الواقع بالإضافة إلى الكتب وقاعات الدروس.

موسى وانفلاق البحر: لا حيلة لإنسان أيا كان أن يجعل البحر ينقسم إلى قطعتين ضخمتين، فهذا لا يمكن أن يحدث إلاّ بأمر الله وقدرته، وهو ما وقع بالفعل ليعبّد لبني إسرائيل طريقا يعبرون منه إلى برّ الأمان، لكنّه لم يقع إلاّ بعد بذل موسى جهدا رمزيا أمر به: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ سورة الشعراء 63.

أصحاب الكهف. دخل أولئك الفتية الربانيون تجربةً روحيّةً فريدةً جمعت بين هجر الأهل والموطن بسبب شركهم وبين فرارهم الواعي بدينهم، وكان تحوّلهم هذا موقفاً عملياً أوجزه القرآن الكريم في عبارة موحيّة: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ سورة الكهف 14، فهم لم يقولوا حتى قاموا، أي كان تصريحهم بالقرار المتخذ مقترناً بالنشاط القويّ الّذي يحويه لفظ القيام، ومعلوم أنّ رجل القول غير رجل العمل، فهؤلاء عملوا قبل أن يقولوا، فكان قيامهم جامعاً لمعاني العزيمة القوية والسعي الجاد.

ذو القرنين قام هذا القائد الصالح بأعمال جليلة فيها إصلاح وخدمة لشعوب مستضعفة، ولم يكتف بإصدار الأوامر في هذا الشأن وإنّما تحرّك بنفسه يستكشف ويتفقّد، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بتكرار عبارة ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ سورة الكهف (85-89-92)،

أي أنّ ذا القرنين كان رجل ميدان يأخذ بالأسباب مرّةً بعد مرّة، وهذا يوحي -مرّةً أخرى- بالإيجابيّة والنشاط الدؤوب والعمل القويّ، وهذا دأب كلّ مصلح ينطلق يمنةً ويسرةً وينوّع الأسباب حتّى يحقّق بإذن الله أفضل النتائج.

ولنا مثال آخر في قصّة ذي القرنين يخدم هذا الغرض، وقد ورد في قول الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥﴾ سورة الكهف 94-95، فقد قابل عرضهم المغري بالمال يغدقونه عليه على أن يتولّى هو العمل بدلاً عنهم بعرض آخر أنسب للإنسان المستخلف هو مساهمتهم العمليّة معه في بناء السدّ، واشترط أن تكون هذه المساهمة قويّةً لا ضعيفةً ولا رمزيةً، وتفصّل الآيات الكريمة الأمر بعد ذلك وتبيّن كيف شغّلهم في جمع الحديد وصهره بالنحاس وردم الهوّة به، وهذا عمل كبير مضن من غير شكّ، فبدل أن يكتفوا بإخراج المال جعلهم يفجّرون طاقاتهم ويبذلون جهدهم لأنّ مناط النجاح هو العمل وليس المال.

الرسول ﷺ أمّا خاتم الأنبياء فقد كانت سيرته العطرة كلّها حركةً ونشاطاً وعزيمةً وسعياً أي تزكية للفعل الإنساني، مهما كان مجال تحركه -عليه الصلاة والسلام-.

ففي العبادة قال الله تعالى له: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾ سورة المزمل02، إنها عبادة حيّة شاقّة تحتاج إلى معاني القيام واستثمار القوى الجسدية والنفسية.

وفي مجال الدعوة قال له: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ سورة المدثر 02، فقام -عليه الصلاة والسلام- وبقي قائماً ثلاثة وعشرين عاماً لم يخلد فيها إلى الراحة إلاّ قليلاً، كما قال الله أيضاً: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝﴾ سورة الجن (19) .

وسيرته دليل عمليّ للدعاة إلى الله تعلّمهم الأخذ بأسباب القوّة واستجماع شروط النجاح وتحقيق الغايات عبر الانطلاق الفاعل المتواصل الدؤوب في كلّ ميادين العطاء ومجالاته، وهذا من شأنه تنشئةُ الأمّة الشاهدة الّتي تجمع -بعملها الموفّق- بين السموّ الروحيّ والتقدّم الماديّ، وتبني الحضارة الّتي تلتحم فيها الربانيّة والإنسانيّة، فإذا تناست الأمّة معاني التحرّك القويّ والعزيمة والنشاط انقلبت إلى نموذج أمّة التخلّف الّتي تتّصف بجملة من الخصائص السلبيّة، أهمّها:

- تتكلّم أكثر ممّا تعمل، بينما يعمل صاحب الفعل القويّ ويترك عمله يتكلّم عنه.

- عملها قليل وبطيء ومكلّف، تنفق كثيراً من الأوقات والأموال والجهود ولا تحقّق رغم ذلك إلاّ النتائج الهزيلة، وأقرب مثال على

ذلك ما عليه الأندية الرياضية العربيّة الّتي تبتلع ميزانيّات ضخمة وهي دائمة في مؤخّرة الترتيب أو قريبة منها.

- تستمرئ استيراد السلع والخدمات الضروريّة والحاجية وتغرق في الكماليّات وتعتقد أنّ الغرب مسخّر لها، هو ينتج وهي تستهلك، فهيَ تنتقص من قيمة الفعل الذاتي وترضى بحال السلبية واليد السفلى والنظرة العبورية للحياة.

وكان ينبغي لمن فقه الكتاب والسنّة أن يكون دائماً في صفّ الفعل الحاسم وقمّة الإيجابيّة وجانب القوّة:

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٦٣﴾ سورة البقرة 63.

"المؤمن القويّ أحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف" حديث رواه مسلم.

وهذا ما يليق بالمسلم سواءً كان طالباً أو عاملاً أو سياسيّاً أو عالماً أو مجاهدا أو مقاوما أو رياضيّاً، وقد يبدو من الوهلة الأولى قضية مسلّمة وبديهية لا تستحقّ النقاش لكنّ واقعنا المتردّي يستدعي التأصيل بعد انحسار فكر المسلم وتراجع إسهاماته إلى درجة توازي قيم الفعل الإنساني خلف الرؤى الجبرية وعقلية الإعجاز والتعجيز.

المقالة الثامنة عشرة

الإمامة الصالحة

قضت سنّة الله في خلقه أن يحتاج الناس في حياتهم الاجتماعية إلى قيادة فردية أو جماعية على أيّ من مستويات الحياة البشرية من الأسرة والخلية الصغيرة إلى المؤسّسة والدولة والأمّة، والقيادة مركز حسّاس خطير لكن لا بدّ منه في كلّ الأحوال، إذا لم يتولّه البرّ تولّاه الفاجر.

ويتدرّج الإنسان الربّاني في مراقي الكمال حتى يتجاوز بقربه من الله تعالى تحصيل التقوى إلى مرتبة طلب الأستاذية للأمّة التقية، وقد فهم عباد الرحمن -الذين ذكر القرآن الكريم خصالهم الحميدة في أواخر سورة الفرقان- هذه الحقيقة فرفعوا إلى ربّهم دعاء مناسبا لها: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤﴾ سورة الفرقان 74 أي طلبوا بجدارة واستحقاق - لا بمجرّد الإدّعاء والغرور، حاشاهم- منزلة القيادة للجموع المؤمنة، قيادة ممتدّة في الدنيا والآخرة، وقد ذكر السياق القرآني أن الله تعالى أكرمهم بالإمامة الأخروية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ الفرقان 75 وهذا يقتضي أنهم نالوا الإمامة الدنيوية، صبروا على نيلها من جهة وعلى أعبائها من جهة ثانية، والصبر في الحالين عنصر أساسي وعامل ضروري، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ سورة السجدة 24، فقعّد الراسخون في العلم المسألة بقولهم: "بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين".

نفهم من هذا أنّ المسلم لا يجحد ذاته بل يسعى لنيل درجة القيادة الراشدة بالهمّة نفسها التي يسعى بها أصحاب القيادة الفاسدة المتمثّلين في الملأ الفرعوني، فقد ذكر القرآن الكريم فرعون وحاشيته فقال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ سورة القصص41، بمعنى أنّهم كانـوا في حياتهم يدعون إلى المارج الناري والقوّة التي رفضت السجود للإنسان والمنهج الحضاري القائم على المطلق الـذاتي الرافض للغيب وللقدر الإلهي، فهؤلاء نموذج الأستاذية المنقطعة عن الله المستكبرة في الأرض، وتمثّلها في عصرنا الحضارة الغربية المتغطرسة التي يتقمّص سلبياتها ويصدّ عن إيجابياتها المقلّدون الضعـاف المهازيل في العالم الثالث الذين لا يرون بديلا عنها، وفيهم مسلمون لكنهم غافلون عن السنّة الإلهية الماضية التي أشار إليها القرآن الكريم: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ سورة القصص5-6، هي إذن القيادة الحضارية التي تدعو إلى المنهجية الإلهية، فينبغي أن ينخرط في سلكها ويتمسّك بأهدابها كلّ من يؤمن بالمشروع الإسلامي ويريد سعادة الدنيا والآخرة، وبديهي أنّ هذه الإمامة ليست عامل تفاخر إنّما هي مسؤولية كبرى تتوافق مع التجرّد من الإحساس بالملك بما يؤدّي إلى ممارسة القيادة الأممية بقوّة الاستخلاف مع الزهد فيها وعدم التعلّق بها، وهي مسألة على قدر كبيرمن الدقّة والصعوبة بحيث لا يقدر عليها صبراً وممارسة وإخلاصاً إلاّ المتخرّجون من مدرسة

التربية الإيمانية المحرقة: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ سورة البقرة 45
﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾سورة البقرة 143 ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾سورة فصّلت 35.

وبدل أن تقنع جماعة المؤمنين بالزهد الكاذب الذي ينمّ عن العجز فإنّ عليها أن تعبّر عن بطولاتها وقدراتها على مستوى الكون -و هو دائرة تكليفها- بطلب الإمامة والقيادة والأستاذية -وهي دائرة طموحها- فإذا كانت الفرعونية تتبجّح بالقيادة الفاسدة فإنّ الجماعة المؤمنة تقدّم البديل الحضاري الجامع بين الربّانية والإنسانية الذي تعيش البشرية في كنفه حياة طيّبة وتنال الأمّة المسلمة بفضله الحياة الكريمة في الدنيا وجنّة النعيم في الآخرة.

ويجدر التنبيه على احتمال الإمامة المذكورة لأوجه متعدّدة وأشكال شتّى، فهي ليست مقتصرة على القيادة السياسية وسدّة الحكم -وإن كانت تشملها- بل تبتدئ بالريادة الثقافية، فتنشر من خلالها الأفكار الحيّة المنعشة على مستوى العقيدة والتصوّر والحياة الفردية والعامّة، أي تحدث إصلاحا فكريا في المعاني الدينية والأذواق والسلوك والعلاقات بين الناس والأمم، إصلاح يظهر فيه تميّز المنهج الربّاني المحكم الذي تهوي إليه القلوب وتستقيم بهديه العقول وترشد الحياة، ومثل هذه الإمامة التي مارستها الجماعة المؤمنة قرونا لا يمكن أن تستأنف مسيرتها الآ بواسطة رجال أفذاذ ذوي إخلاص وبصيرة وحبّ للإسلام وتفان من أجله، يحيون سنّة أسلافهم عن

قناعة ودراية، فقد وصف الله تعالى إبراهيم عليه السلام - وهو فرد - بأنه أمّة، فقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ سورة النحل 120، ولمّا طلب عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الصحابة أن يتمنّوا فتمنّوا المال وأشياء أخرى ليجعلوها في سبيل الله قال هو: **أمّا أنا فأتمنّى لو أنّ لي بيتا من أمثال أبي عبيدة بن الجرّاح**، وكفى بها شهادة من أمير المؤمنين في أهميّة الرجل الفذّ والمؤمن القويّ ليتولّى القيادة، فكيف يستقيم أن نترك قيادة المجتمعات للعلمانيين أصحاب الرؤى والتصوّرات الوافدة الذين تسيّرهم الشهوات ويعانون من الغبش بفعل الشبهات؟ ألسنا نرى فسادهم يُداهم حياتنا على مستوى التربية والإعلام والاقتصاد والسياسة والأدب والفنّ فلا يُبقي لولا يذر؟ من منّا يقول: أنا لها... فيكون للمتّقين إماما؟

فهرس

المقالة الأولى: الأبعاد الواقعية للنماذج القرآنية........5

المقالة الثانية: الفرعونية 13

المقالة الثالثة: النموذج القاروني 25

المقالة الرابعة: حين تنهزم الأمة نفسيا.................33

المقالة الخامسة: الصف المؤمن لا يضعف ولا يستكين 37

المقالة السادسة: الصبر واليقين في حياة المسلم 45

المقالة السابعة: المشروع الإسلامي في سورة الحشر........49

المقالة الثامنة: الفتح المبين..........................57

المقالة التاسعة: خصال الروم وسنن التمكين..............63

المقالة العاشرة: مقوّمات الخلافة في الأرض 69

المقالة الحادية عشرة: أبعاد نفسية واجتماعية من قصة طالوت 75

المقالة الثانية عشرة: فقه التمكين من قصة داود.........85

المقالة الثالثة عشرة: السنن والخوارق في مُلك سليمان.........91

المقالة الرابعة عشرة: مواقف مؤثرة بين ملكة سبأ وسليمان..... 101

المقالة الخامسة عشرة: المحن بين الابتلاء والعقوبة 109

المقالة السادسة عشرة: فكر العافية........................ 117

المقالة السابعة عشرة: معجزات الفعل الانساني 123

المقالة الثامنة عشرة: الإمامة الصالحة 131

عبد العزيز كحيل من مواليد 1952 بمدينة عين البيضاء بالشرق الجزائري، خريج كلية الحقوق بجامعة قسنطينة سنة 1979 .

عمل إطارا في الإدارة وأستاذا للقانون وخطيبا بالمساجد .

اشتغل بالعمل الدعوي والفكري منذ شبابه الأول ، من دعاة الوسطية والاعتدال ورفض التطرف بكلّ أشكاله.

نشر مئات المقالات باللغتين العربية والفرنسية في جرائد جزائرية وعربية ومواقع إلكترونية عالمية.

له عدة كتب بدأ طبعها تباعا في المجالات الشرعية والدعوية والتربوية والفكرية والسياسية .

ISBN : 978-9961-52-843-3
دار الخلدونية
05 شارع مسعودي محمد - القبة القديمة - الجزائر
ه : 021.68.86.49 email : khaldou99_ed@yahoo.fr
ه/ف : 021.68.86.48